
دار العين للنشر
@ketab_n
Follow Me
14.6.2014
رواية
حب قاطعي الطريق
ماسيمو كارلوتو
ترجمة
بسمة محمد عبد الرحمن
@ketab_n
Follow Me



حب قاطعي الطريق

روايــة

ماسيمو كارلوتو

ترجمة

بسمة محمد عبد الرحمن

دار العين للنشر

حب قاطعي الطريق

رواية

ترجمة/ بسمة محمد عبد الرحمن

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٥٣٧٤ /٢٠١٣

I.S.B.N: 978 - 977 - 490 - 221 - 5



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كارلوتو، ماسيمو، ١٩٥٦.

حب قاطعي الطريق: رواية/ ماسيمو كارلوتو؛ ترجمة: بسمة محمد عبد الرحمن.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢٢١ ٥

١- القصص الإيطالية.

أ- عبد الرحمن، بسمة محمد (مترجم)

ب- العنوان.

٨٥٣

رقم الإيداع / ٥٣٧٤ / ٢٠١٣

إلى وزير الداخلية، إلى وزير العدل..

إنه في 17 مارس السابق، وطبقا لمعهد الطب الشرعي لجامعة بادوا، فقد تأكد اختلاس كمية كبيرة من المواد المخدرة، التي كانت في المعامل، بغرض إجراء تحاليل سمية على المادة النشطة. والكمية هي حوالي أربع وأربعين كيلوجراما منهم ثلاثون كيلو هيروين، وعشرة كيلو كوكايين، والباقي ما بين أمفتامين وحبوب ومواد مخدرة.

وقد كانت تلك المواد محفوظة بحوزة معمل المعهد، محصنة خلف باب ولا يمكن لأحد عبوره إلا في حال امتلاكه لبطاقة دخول ممغنطة وشفرة لجهاز إنذار يتم التحكم فيه آليا.

ووفقا لما جاء في الصحف، فقد تمت السرقة بدون كسر قفل الباب المغلق، وعبر تحييد نظام الإنذار..

(الرد الكتابي على الاستجواب رقم 4-10236- جلسة رقم 476، الإثنين 14 يوليو 2004)


Twitter: @ketab_n

عاود الغريب المرور للمرة الثالثة أمام واجهة محل مصفف الشعر للسيدات. أعطت السيدة ظهرها للمرآة، وكانت تختار طلاء أظافر وتومئ بالموافقة، وهي شاردة على تعليمات التي تضع لها الطلاء، بينما كان رجلٌ في العقد الخامس من عمره يمشّطها بحركاتٍ واثقةٍ ودقيقة.

ابتعد الغريب، وهو يفكر في أنها ستخرج خلال فترة قصيرة. كان يتابع السيدة منذ أسبوع كامل، وقرر أن هذا اليوم هو اليوم المناسب. عدل من ياقة معطفه الداكن وتوقف أمام واجهة أخرى ليتمعن في بعض التحف من الأثاث، وخاصة مائدة صناعة ڤينيسيا في العقد الثاني من القرن السابع عشر.

وكان مالك المحل يعدل من وضع لوحة تصوّرُ امرأةً عجوزا من النبلاء، فوجّهَ نحوه ابتسامةً على أملِ أن يغريَهُ بالدخول. أطرق الغريب رأسه في حركة تبدو كأنها تلقائية، لا تمليها ضرورة تجنب انتباه الرجل، وتظاهر بالاهتمام بمصباح فوق مائدة صغيرة قبل أن يستدير ويتابع.

لم يقلق على الإطلاق. فبائع التحف لم ينل وقتا كي تنطبع ملامح وجهه في ذهنه وقد علمته التجربة أن الشهادات نادرا ما تعتمد. لكن أكثر ما طمأنه هو حقيقة كونه مجهول تماما في منطقة سيغادرها إلى الأبد خلال ساعة واحدة على أقصى تقدير.

واصل المشي تحت الأروقة مختلسا النظر إلى محلات الموضة، محاولا تخيل أين يمكنه التسلل للسيدة قبل أن يقرر العودة للمنزل. هي تسكن

في قرية مجاورة والغريب يفهم تماما لماذا هي مجبرة على الانتقال فقط كي تتجمل. فالقرية التي تسكنها تطل على البحر. وباستثناء الصيادين وأسرهم لا يوجد سياح في نهاية أكتوبر وجزء كبير من الأنشطة التجارية مغلق أما ما بقي فيها تاركا أبوابه مرفوعة لا يناسب بالطبع مقام سيدة راقية مثلها.

يوم عمل، منتصف النهار، ظلمة شتوية وقليل من المارة.. حلل الغريب للمرة الثانية الظروف المحيطة ثم دق بخفة على هيكل عربة نقل بضائع بيضاء. وقبل الصعود ألقى بنظرة على السيارة الأنيقة التي تركن على مقربة.

"كنت فاكر إننا المفروض مانستناش وقت طويل" اخبر الرجلين الجالسين فوق بعض الصناديق التي تملأ فراغ الشحنة.

لم يحرك أحدهما عضلة أو نبس بكلمة. كانا محترفين ونظريا لا يعلمان ما يقومان به. كانا جاهزين منذ برهة وسيظلان هكذا حتى نهاية الأمر.

كان الغريب يعرفهما جيدا فقد كانا أفضل خلصائه. في زمن آخر، في الجيش، كانت لديهما ميزات أخرى لكنهما الآن أصبحا مقاتلين مخلصين فقط، وقتلة ماهرين أحيانا.

تسلل ضوء مصباح قريب عبر الورقة التي تسد فتحات الباب الخلفي. لاحظ الغريب أيدي شركائه، كانت محمية بقفازات مطاطية اتخذت في هذه الإضاءة الجديدة لونا شبحيا. أما قفازاته فكانت من جلد ناعم

ورقيق. لم يرد أي منهم أن يترك آثارا في الجوار ولا أن يمكن لهذا أن يحدث. فيمكن للعربة أن تسافر لمسافة طويلة حتى تصل لمنطقة آمنة، وكان من الممكن أيضا أن تحرق لتجنب وقوع أصغر شعرة أو أثر بيولوجى في يد أي محقق.

كان الغريب متأكدا أنه يتعامل بحذر مبالغ فيه لكنه لا يعرف سوى القليل جدا عن الحدث الذي أتى به إلى هذه البلدة في الشمال الشرقى الإيطالي مما يمكنه من الوثوق فيهم. فقد تم الاتصال به والدفع له بسخاء ليعتني بالسيدة. عقد مثل الكثير من العقود الأخرى. لا يوجد شيء معقد، لكنه خرج من حرب أهلية سالما وحتى هذه اللحظة أفلت لأنه كان دائما منتبها للتفاصيل.

تنهد واسترخى.

توجهت السيدة نحو الصراف وهي تواصل الحديث مع فتاة طلاء الأظافر، ونظر المصفف لمؤخرتها كما فعل لعدد لا يحصى من المرات، فلم تكن فقط جميلة، بل كانت أيضا تتمايل بها بشكل مثالي. لم تفت النظرة على الزوجة التي كانت تجفف شعر زبونة أخرى، وفورا سمع الإيقاع السام الذي بدأ يهمس فور خروج السيدة.

"سوداء وعاهرة": كانت الكلمات الأولي. لم تكن أيٌّ من الكلمتين صحيحة. كانت البشرة عنبرية والعينان زرقاوين. كما يمكننا أن نتوقع حين يقرر جزائرى من صطيف وبريتونية من سانت مالو أن يجلبا بناتا لهذا العالم. كانت تزيد عن متر وستون سنتيمترا بقليل لكن كعب

الحذاء جعلها تبدو أطول، وكان الجسد ممتلئا وصلبا والحركات متموجة وحسية، لراقصة شرقية. كانت تعرض منذ حوالي خمسة وعشرين عاما في ملاه أوروبا الليلية ولهذا السبب شعرت المصففة بأنه من حقها أن تصفها بالعهر. الحقيقة هي أنها كانت تروق لعدد لا بأس به من رجال المنطقة وكذلك للأكثر شبابا منهم اللذين كانوا ليتسللوا بكل سرور لفراش هذه الغريبة الأربعينية المدهشة.

استغلت السيدة الفرصة أثناء انتظارها لبطاقة الإئتمان كي تصفف شعرها أمام المرآة وهي تحرك رأسها لتموج شعرها الأسود الطويل ذو الانعكاسات الحمراء المذهبة. ثم عبرت الطريق لتدخل محل يبيع القهوة. طلبت التحويجة المعتادة وتذوقت منها فنجانا تاركة على حافته أثرا مثاليا لأحمر الشفاه. تبادلت بعض الملحوظات مع المالك الذي كان زبونا منتظما في محل عملها. وكان يعرض عليها مطوية تعلن عن دورة تدريبة للرقص الشرقي ويقترح عليها أن تتقدم كمدربة. أما هي فلم ترد. فمن الماضي بزغ وجه معلمتها الوحيدة، غازية مصرية لم تتخل أبدا عن تذكيرها أن راقصات البطن كن في الأصل غجر وعليهن أن يبقين كذلك. وهي لم تنسى ذلك أبدا و لم تتوقف أبدا حتى قابلت الحب. رجل طويل وعفي له عيون ضاحكة تحيط بها ثنيات عميقة. تركته منذ عدة سنوات رجعت بعدها. دون أوهام لكن بتصميم أن تبقى بجانبه حتى يأتي الوقت الذي تدرك فيه أن الأمر انتهي حقا.

قبلها بقليل كانت قد شاهدت زوجا من الأحذية في أحد المحلات

ووعدت نفسها أن تعود من أجل تجربتهما في وقت أخر. الآن يجب عليها العودة للمنزل ففي يوم أجازتها كانت الأمسية والسهرة مخصصة فقط لحبيبها.

وعلى بعد خطوات قليلة من السيارة مدت يدها في الحقيبة لتبحث عن مفتاح التحكم عن بعد. سمعت صريرا يأتى من وراء ظهرها وبطرف عينها لمحت الباب الجانبي للميكروباص ينفتح. وقام ذراعان هائلان بالقبض عليها وجرها للداخل. لجزء من الثانية بحثت عينها في الظلام عن الشخص الوحيد الذي يمكنه أن ينقذها. لكن حبيبها لم يكن هناك وسألت نفسها إذا كانت ستراه أبدا ثانية.

بعنف وكفاءة تم شلها، تكميمها وتعصيب عينيها. كانت تتردد على أسوأ المحال الليلية منذ زمان وقابلت أسوأ المؤخرات التي يمكن مقابلتها مما مكنها أن تدرك أنهم ليس لديهم النية لقتلها في اللحظة الراهنة، على الأقل.

انتبهت على وخزة مزعجة في الرقبة. بعد بضع ثوان بدأ خدر رحيم جعل الخوف محتملا عما قبل.

أخذ الغريب من جيبه خاتما ذهبيا سميكا وعلقه على حامل مفاتيح السيدة ثم صعد العربة، فتح باب السيارة ودسه تحت المقعد. بالنسبة له لم يكن هناك أي مغزي لهذه الحركة. كانت رغبة الزبون الذي دفع ثمنا غاليا من أجل هذا الفعل الغريب.

جلس خلف مقود السيارة وأدار المحرك.

بعدهـا ببضع سـاعـات، حين كانت المدينة لا تزال نائمة والشوارع مهجورة، فتح رجل باب سيارة السيدة. فحص لوحة العداد ونظر تحت المقاعد بحثا عن دليل، أي شئ، يسمح له بفهم أين سيقوم بالقنص. فقد انتظرها حتى وقت متأخر لم يعد قادرا فيه على التماس الأعذار وبدأ البحث عنها. حين وجد الخاتم بدأ القلب في الدق بقوة. أراد أن يصرخ. نجح في تهدئة نفسه بعد بضع دقائق طويلة وتشمم مقصورة القيادة. شعر بالكاد بعطر السيدة المميز الذي جاءت به من منتج صغير من فيرنتسا. نذير سيء. معني هذا أن أيا من كان قد أخذها لديه ميزة أنه متقدم بعدة ساعات.

* * *

كنت في هذا المساء موجودا في أحد البارات في وسط بادوا. أحد هذه البارات التي تقدم المشروبات باللتر وترى جميع الزبائن بالخارج يمسكون كوبا بلاستيكيا في يد وفي الأخرى سيجارة. فقانون التدخين بالإضافة لجعله المحلات أكثر حزنا والزبائن والنوادل أكثر صحة، تسبب في غزو الميادين والشوارع. وقد ظن عدد غير قليل من الأشخاص في المدينة أن الموضة الجديدة تستحق مجادلات وتحركات في المجلس المحلي وأنهار من الحبر في الصحف اليومية. مع أنه كان من الواضح أن الجميع سيذهب للجحيم إذ أن الأزمة الاقتصادية كانت تلوح من بعيد في ذلك الوقت. فتبديد الوقت في الأمور الأكثر عقما أصبح هو الرياضة القومية.

وصلت التي أعطيتها الموعد لاهثةً. كانت تخشى أن تكون قد تأخرت وكانت متأخرة بعشر دقائق بالفعل. كانت تجهل تساهلي في أمور الدقة في المواعيد نظرا لعدم معرفتها بي. استدرت نحوها لأظهر نفسي ولأسهل عليها الأمر لوحت بيدي.

"حضرتك ماركو بيوراتي؟" سألت مترددة.

أومأت بالموافقة. "تشربي حاجة؟".

أشارت بالرفض. رفعت أكتافي ورشفت من مشروب السبريتز. بروسيكو وكامباري وصودا ونقطة من ساينار وشريحة برتقال وثلج. أنا أشربه هكذا. كانت له تنويعات عديدة علم بها حتى الصينيون الذين كانوا يشترون جزءا لا بأس به من بار بادوا.

منحتها وقتا كي تلاحظني بهدوء بينما أشعلت لنفسي سيجارة.

"شكلك لئيم" كان هذا حكمها. "يمكن أنا غلطت لما طلبت أقابلك".

ابتسمت كي أجعلها تدرك أنني لا أحاول مساندتها. أشرت بالحذاء التكساس الظاهر من بنطالي الچينز ومررت يدي على السترة الجلدية القديمة. "شكلي مش قد المقام؟"سألت.

حاولت شن هجمة مضادة خجولة "كل المحققين الخاصين التانيين بيحطوا اسمهم في إعلانات في الصفحات الصفرا لكن أنت اسمك مابيظهرش حتى ف دليل التليفون".

"يبقى عشان كدة ماعنديش رخصة"

فغرت السيدة فاها من الدهشة. "أنت بقى عاوز تبتزني؟"

فرغ الصبر. "أنا عاوز أنقذ طيزك يا حلوة" همست بنغمة قاسية. "زيما قلت لك في التليفون محامي جوزك عينني عشان جوزك شاكك أنك بتنامي مع شريكه".

" ده كدب" صرخت تقريبا.

"ما أنا عارف، أنت بتنامي مع مساح خرايط اتعرفتي عليه في الجيم".

"أنت قلت لجوزي الكلام ده؟".

"لا".

تنفست الصعداء كما لم تفعل أبدا في سنوات عمرها التسع والثلاثين كلها. "هاتقوله؟".

تظاهرت بالجدية في اللحظة التي رفعت فيها الكوب لشفتيها. في الواقع لم يكن لدي النية لفضحها.

فعلت ذلك في أحد المرات. كان الزبون مقدسا، وبعدها ذات يوم أدركت أن عالم الأزواج الشكاكين يستحق فقط أن يتم تجريف نقوده. وأن الخيانة في العمق هي أحد الوسائل الكثيرة لمواصلة الحياة. وكانت من غرزت هذا المفهوم في رأسي شقراء من ميسترى التقطتني وأنا أراقبها. استخدمت حججا ونبرات مقنعة للغاية. "في الشغل في أغبيا بيدمروا دماغي، وبنتي هاتلبس تقويم أسنان لمدة سنتين، وجوزي راجل ممل بس

ممكن برضو أكون أنا اتسرعت في إني أقنع نفسي أن هو رجل حياتي". قالتها وهي تزفر. "يبقى نزوة من غير التزام من الجنس وبس هتمشي الحال فاهم حاجة؟". فوافقت وشرحت لها بعض الحيل كي لا تولد الشكوك لدى الرجل الذي أقسمت له بالولاء.

القيت بالكوب في صندوق القمامة. "ساعات الناس بتكون مستعجلة تتكشف عشان تسيب كل حاجة وتبدأ حياة جديدة. في الحالة دي هايكون من الأحسن إني أسلم المحامي شوية صور". شرحت للكتكوتة المواجهة لي معطيا نفسي سمت الخبير بفرع الأزواج حتى لو كان كل من يعرفونني جيدا يعرفون أنني لا أفقه عن النساء شيئا البتة وأكثر من مرة قلن لي هذا في وجهي.

"أما لو انتي عاوزة تخلي الأمور تفضل على حالها فأحسن تنتبهي أكتر من كدة وماتثقيش في التكنولوجيا. رسايل الموبايل والإي ميل والكلام ده أتعملت عشان تسهل مراقبة الناس".

"أنا مش عاوزة أسيب جوزي" غمغمت وهي على وشك البكاء.

أخذت التليفون واتصلت بالمحامي الذي عينني. "الست تمام" قلت. "الشريك بينام مع مربية الأولاد الأيرلندية هو بيفضل الستات اللي سنها صغير".

"شكرا..." أضافت وبتأثر أكبر.

شددت على يدها وتمنيت لها حظا سعيدا وذهبت وانخرطت في حشد من يقفون للحصول على مشروب فاتح للشهية. عبرت ميدانا ودخلت في

زقاق في الحى القديم. وتوقفت عند "ألبرتو في زجاجة" وشربت كوبا من نبيذ بوليتشيني، سمعت قليلا من الثرثرة حول مباراة الرجبي الأخيرة وعدت للمنزل.

في ذلك الوقت كنت أمتلك بار مع رجل سمين يدعى ماكس "ذاكرة". كان بالكاد خارج بادوا ويحتل الطابق الأرضى في منزل ريفي صغير لم يتم هدمه، بمعجزة، كي يبني محله مستودعا من المستودعات الكثيرة التي تغزو المنطقة. كان الزبائن يدعونه الوجار* لأنه كان مكانا ودودا ويمكن فيه سماع الموسيقى الجيدة والأرفف خلف النضد تمتلئ بزجاجات الخمور من العلامات التجارية الشهيرة.

منذ يوم الافتتاح تمت إدارته على يد رودي سكانفيرلا، بارمان أعرفه منذ عمر طويل. كان يدرك قيمة نفسه ويعمل دائما مقابل مرتب ضخم لا ينسى أبدا أن يتلاءم مع التضخم وتكاليف الحياة.

على مرآة في البار كُتبت باللون الأحمر بعض الأبيات من أغنية "أنا أشرب" لعملاقة موسيقى البلوز مارى جوتييه. مترجمة للإيطالية ومنغمة على الشكل التالي:

الاسماك تعوم

والطيور تطير

الآباء يصرخون

الأمهات تبكي

والمحبون يذهبون وأنا أشرب.

كانت هذه هي فلسفة المكان وكان الأشخاص اللذين يترددون عليه يحترمون الرسالة. يمكن التدخين في الوجار. استثمرنا بعض النقود في معمل مناسب ولكنه غير قانوني، وكل شهر كنا نمد كل من يمكن أن يكون لديهم سلطة التأثير على التفتيش بأوراق بنكنوت جديدة. فقد كان من المستحيل الالتزام بالقانون في هذا الزمان والطريقة الوحيدة للاستمرار في العمل هي الدفع. ومن الناحية الأخرى كان المنتظرون في الصف من أجل الانضمام لطابور حماة القانون يتزايدون: لم يكن الأمر مربحا مثل التعاطى مع السياسة لكنه يضمن نوعا ما من الراحة.

ويجب أن أعترف أننا لم نكن بخلاء أبدا، فمكاننا لم يكن هذا النوع من المحال التي تدور فيها الأموال بكميات وفيرة. بل هو محل لمن يشربون الخمور ويتمتعون بالأذن السليمة للاستماع لموسيقى الـچاز والبلوز وطبعا على قدر من الأناقة كذلك.

كان هذا يروق لي ولماكس. ومنذ سنين جلسنا على نفس المقاعد على نفس المائدة حيث نلتقى بالزبائن المحتاجين لخدمات محكومين سابقين قرروا أن يصبحوا مخبرين خاصين. في الحقيقة كانت الفكرة فكرتي أنا، وانضم شريكي بعدها. تقاطعت مصائرنا حين نمت لدى الرغبة في شخص يمتلك الذاكرة القوية والولع بالملفات. ومن وقتها لم نغب عن نظر أحدنا الأخر. وأهديته نصف المحل وأحدي الشقتين المشتقتين من الدور العلوى.

لم يكن هناك ميثاق سوى الصداقة والكرم الأصيل. وكنت قد مارست الحب مع امرأته التي ماتت حرفيا بين يدي مصفاة بطلقات من قتلة عصابة برنتا. وهذا واحد من العديد من المشاعر بالذنب التي راكمتها و لم انجح في التحلل منها.

في الواقع لم نكن زوجا بل ثلاثي. كان الثالث مهربا نهابا يقترب من الستين. تعرفت عليه في سفينة وأنقذت حياته. وبالتالي قام هو برد الجميل لعدد لا أذكره من المرات. ويدعى بينيامينو روسيني ويسمي بروسيني العجوز كي يتم تمييزه عن العديد من الأخوة. من الأفضل أن تتخذه صديقا. فكعدو يمكنه أن يصبح لعنة حقيقية.

لا يفتح الوجار مصراعيه قبل العاشرة مساءً. دققت الباب على السمين.

"أراهن أنك جيت عشان تبرشت عالعشا" همهم متظاهرا بالانزعاج.

"ويا سلام لو كمان كاس" استفززته.

"يبقى جيت المكان الغلط".

تبعته حتى المطبخ.

"النهاردة طابخ بيجولي بصوص البط" أخبرني وهو ممسكا بمغرفة. "المكونات طبيعية مية المية" قال محددا وهو يتذوق الحساء.

أحدي غرائب طبع شريكي العديدة هي قلة مرونته في أمور الوجبات. فغالبا ما يتواجد بين القدور والأفران لكنه لم يخرج أبدا من أسوار المطبخ

الإقليمي الذي كان مثقفا ودارسا له. بالنسبة لي لم يكن يهمني الأكل كثيرا لكن أيضا السنين تمضى والوصفات ليست لانهائية.

وصراحة كنت قد بدأت أتمني أن تمتد آفاقه المطبخية أبعد من حدود الشمال الشرقي.

نزع سدادة زجاجة نبيذ أحمر من كولي بيريتشي. وبينما كانت الباستا تنضج احتسينا منه كأسا.

"أنا عزمت واحدة عالعشا بكرة" أعلنت.

"هاتنيل أروح في أي داهية تانية" طمأنته قبل أن أسأله: "واحدة من الدكتورات النفسيات اللي بياكلوا الدماغ بالكلام عن لاكان والحاجات دي زيالتلاتة اللي فاتوا؟"

"لأ خلصت من النوع ده" رد بأسف. "مدرسة بعقد موقت، مقتنعة بكونفيدرالية لجان القاعدة*، منفصلة ومعندهاش أولاد".

"جميلة؟".

"مش بس كدة" تهلل "دي كمان بتشرب وبتدخن ومش مشتركة في كورسات فنية ولا زفت جيم".

"بشرة خير" علقت وشعرت بالحاجة إلى تغيير مجرى الحديث.

ڤيرنا خطيبتي تركتني. قالت لي أنها تعبت من شكواها الدائمة من نفس الأمور، وأنني لن أتغير أبدا، وأضافت اعتبارين أخرين آلماني. لم أرها منذ عدة أشهر، وأشعر بالوحدة والهزيمة. وبالطبع كنت حزين.

"العالم مليان ستات هم عددهم أكتر م الرجالة" كان هذا هو تعليق ماكس الوحيد، فقد كان متأكدا دائما أن الأمور ستنتهي بيني وبين ڤيرنا هكذا.

الحقيقة كانت أنني أردتها. وفي السادسة والأربعون من عمرى لم يكن لدي أي نية أن أشغل نفسي وأخسر وقتا في استراتيـچيات المغازلة. هذا ما كنت أفكر فيه وقتها، لماذا إذن لم أعلم أن في هذه الليلة سيتغير كل شئ في حياتي وأن القدر لن يتدخل أبدا. بل كان الماضى هو ما سيعود مجددا بقوة إعصار مدمر كي يصفي حسابات قديمة تركت معلقة.

لا يمر على يوم ولا أتذكر تلك اللحظة في وقت متأخر من الليل حين انفتح باب المحل على مصراعيه ودخل بينيامينو روسيني. أدركت فورا أن أمرا جللا قد حدث. وجهه شاحب، فكه متشنج ومشيته متصلبة. ترك نفسه يسقط على المقعد بجوارى. في نفس اللحظة وصل ماكس ذاكرة الذي لاحظ علامات الأسى على وجه صديقنا. رفع روسيني قبضته اليمنى بحذاء وجهه ثم دق بها على المائدة جاذبا للحظة انتباه الرواد الآخرين. بعدها أدار يده ببطء وفتحها. تبادلنا أنا وماكس نظرة. تعرفنا فورا على الخاتم. حقا كان هذا أخر شئ توقعنا رؤيته لمرة أخرى.

"لقيته فين؟".

"في عربية سيلڤى" همس. "تحت الكرسى" حدد بدقة. شعرت بالدم يتجمد في عروقى. ففي يونيو من عام 2004 كنت أنا نفسي من تركته في نفس المكان في سيارة أخرى وكان هذا الأمر بمثابة رسالة موت.

"وسيلڤي؟".

"اختفت".

كان ثلاثتنا مقتنعون أنها قتلت، إذ أن الرجل الذي ينتمي إليه الخاتم نفسه اغتيل ودفنت جثته على حافة طريق سريع قيد الإنشاء. وإعادة العثور على قطعة المجوهرات هذه داخل السيارة كانت تمثل إعلان وفاة مباشر لعصابته. تقاليد عصابات زمن أخر.

ابتلع ماكس في جرعة واحدة نبيذه. "لكن ليه يدفعوا سيلڤى التمن؟"

أشعل ماكس قداحته وقرب اللهب من طرف السيجارة. "يمكن قرروا يتسلوا وبدأوا بيها عشان يفهمونا أنهم هايخوزقونا واحد ورا التاني بكل برود"

"ويمكن كانوا عاوزين يسترجعوا جثة الراجل صاحب الخاتم" صرح البدين.

كلام عديم المعني. "اسكتوا اشوية" غمغمت. "أحنا خرجنا عن الموضوع".

"أنت اللي تسكت" زجر روسيني. "النهاردة قتلوا مراتي".

"ماحدش قال كدة" همست بقناعة مهتزة.

"أنا نشرت خبر إني بادور على حاجة مهمة" أبلغنا بنيامينو. "مافيش مهرب في البر ولا البحر تاجر مخدرات أو راجل ف المافيا مايعرفش، ماعرفش ممكن أعمل إيه أكتر من كدة".

كان روسيني العجوز مهزوما وصوته مبحوح من التوتر. رفعت سبابتي لأجلب انتباه النادل الباكستاني الجديد. لم أكن أتذكر اسمه. قام ماكس بتعيينه وكان هو المهاجر الغير شرعي الوحيد في وفي الشهور الأخيرة قام برفع قيمة ما يدفعه من رشوة كي يتجنب طرده. طلبت منه أن يجلب ماء وڤودكا لصديقنا.

خيم على المائدة صمت كابوسى، كسره بنيامين بعبارة تطفح بالحقيقة "بكيت وأنا جاى على هنا، بكيت بيأس حقيقى، لحد دلوقت كنت أنا اللي باخلي الناس التانيين هما اللي يبكوا".

كان هذا صحيحا. لأول مرة نشعر بأنفسنا على حافة الهاوية و لم نكن معتادين على هذا. لم تكن لدينا أدنى فكرة عن أين يمكننا أن نجد سيلڤى، لأن الشخص الذي أحضر لنا هذا الخاتم كان مجهولا تماما، لم نتحقق أبدا من هويته. فقد ضربه بنيامين على رأسه لأنه حاول أن يورطنا في قصة لم نرد أن نعرف عنها أي شئ. تعامل معه بحركة دفاع عن النفس وكنا مقتنعين أنه لن يكون هناك تبعات. لم نرتكب خطأ أكثر من ذلك.

أشعلت سيجارة. كان لها طعما معدنيا. مضمضت فمي بجرعة من نبيذ كالڤادوس. مد روسيني يده ليحضر العلبة. "خلونا نعمل حاجة يا رجالة أنا هاتجنن ومش عاوز أكسر المحل ده عزيز على".

خرجنا من الوجار متنفسين ملء رئتنا برد نهاية أكتوبر وصعدنا سيارته. عند كشك التعريفة في بادوا الشرقية تقابلنا مع زوج من سيارات الدرك. ربما كان ضباط الشرطة هم أخر من يمكن إعلامهم باختفاء سيلڤى، هذا

لو كانت لدى أحدهم نية وضعهم في مجرى الأحداث أصلا، وهذا فقط لو كان من أجل مصلحته هو نفسه. كانت هذه قصة من الجحيم ومن المؤكد حسابيا أنها من المقدر لها أن تنتهي نهاية سيئة. فلا يوجد أي قاضى أو محامي أو محلف لعين يمكنه أن يكون في وضع يسمح له بترتيب الأمور. سيموت أحدهم بالتأكيد. وكان هذا هو الأمر الوحيد المؤكد لدينا بينما كانت السيارة تجرى باتجاه الشرق.

بحثنا عن سيلفى لمدة عشرة أيام. في كل مكان. قلبنا الشمال الشرقى رأسا على عقب واستجوبنا كل من يمكنه أن يعرف شيئا. كان روسيني العجوز مثل الوحش الجريح. حين كنت أنا وماكس نتحدث مع الأشخاص كان ينتحى بنفسه جانبا، لكنهم جميعا كانوا يحملقون فيه بقلق. كانت مجرد رؤيته تبعث على الخوف. وكانت لدينا نوازع لكسر الموازين وتخطى المحظورات و لم تلق طرقنا قبولا.

وقام رجل بلغارى يدير شبكة دعارة ويعرف كل الطرق التي يمكن بها جلب امرأة داخل أو خارج الحدود ضد رغبتها، بأهانتنا آمرا لنا بعدم مضايقته ثانية أبدا. عاد بنيامينو في منتصف الليل وصوب ماسورة المسدس على جبهته. دخنت سيجارة في صمت محدقا في جدار الغرفة الأبيض. متأكدا من موته لم يقاوم المهرب وأغمي عليه. في تلك اللحظة غادر روسيني العجوز منتبها في هذه اللحظة فقط للسيدة المتجمدة من الرعب تحت اللحاف.

"خلاص ماعادش ينفع" قلت في نهاية عشاء مشحون بالتوتر في

مطعم في أودين. "ف الأخر هانوصل أننا نضرب حتى نفسنا بالنار".

"أنا باقدر اللي بيضربوا نار" رد بينيامينو.

"أنت اتجننت" غمغمت. "وعندك حق، بس لازم نقرر من دلوقت إذا كنا عاوزين ندمر نفسنا ولا عاوزين نعرف اللي حصل لسيلڤى".

"مش عاجبني خالص اللي بتقوله دلوقت" انفجر روسيني.

اخترت الكلمات بعناية. "عارف. لكن مافيش منطق في أننا نكمل تدوير بالشكل ده. هي مش هنا. يا ماتت يا الله أعلم خدوها فين".

"ماركو عنده حق"تدخل ماكس. "لازم نبدأ ندور على الراجل أبو خاتم نكتشف شخصيته وخطوة بخطوة نعرف اللي وراه".

"بس في خلال الوقت ده هانكون أهداف سهلة" اعترض روسيني. تنهدت. "أحنا كدة أصلا طول الوقت قبل أو بعد خطف سيلڤى لو عاوزين يطولونا كانوا طالونا من غير مشاكل ومكناش هانقدر نوقفهم".

"فيه في دماغهم حاجة تانية" أضاف السمين.

حدق في بنيامينو متأملا في كلماتنا. "أنا تعبت" اعترف. "أدوني يومين عشان أتماسك".

عدنا إلى بونتا سابيوني حيث كان يعيش بصحبة حبيبته، لكن لم يرد أن تطأ قدمه تلك الڤيلا الجميلة الخالية. جعلنا نصحبه حتى الميناء. فك

مراسى الزورق ذو المحركات الذي يستخدمه في التهريب وتوجه نحو البحر المفتوح. سيلجأ لأحد جداول دالماتيا ويصفي حساباته مع الواقع. ثم يرجع ليواصل حتى النهاية.

"أنا جوعان" أعلن السمين. "تعالوا ناكل سمك".

"مش نرجع أحسن؟ في ساعة هانكون في البيت وممكن نطبخ باستا".

هز ماكس سبابته بتصميم "هنا كل واحد عنده السكة اللي يخلص بيها من توتره" شرح. "بنيامين عنده القارب البخارى وأنت موسيقى البلوز ونبيذ الكالفادوس وأنا الأكل. أنا راجل تخين وعيان وعندي بوليميا عاوز أملي بطني عالآخر عشان استحمل الدوخة المنيلة اللي عملتها لي القصة دي...".

رفعت يدي كعلامة استسلام. "موافقة. تعرف أنك مابتنطاقش لما بتستخدم النبرة دي؟".

وجه نحوى ابتسامة ماكرة. "وواضح أني باتحسن مع مرور الزمن كان لازم تسمعوني وأنا شاب قائد ومسلوع في الحركة الطلابية".

مشهيات، مقبلات، الطبق الأول، الطبق الثأني، إضافات، حلويات، قهوة. فقط بوقت النبيذ قررماكس أن لحظة جمع خيوط هذه القصة التي حولت سيلڤى إلى ضحية ثأر ما قد أتت.

"كان غلطَ أننا نقتل الشخص ده من غير ما نعرف هو مين بالضبط".

بدأ.

"روسيني العجوز صبره خلص بسرعة أوىً" رددت. "مع أن الراجل كان عاوز يستغلنا وينفضلنا عالأخر".

"عندك فكرة نبدأ منين عشان نفهم أي حاجة في العكة اللي أحنا فيها دي؟"

"أنا فكرت في الموضوع ده" اعترفت "وسألت نفسي هو وصلنا أزاى؟ مين أداه أسامينا؟".

"أسمك" صحح السمين. "أنا فاكر كويس قوى أنه أول ما دخل البار سأل عنك "عاوز التمساح" قال كدة بالحرف".

الخميس 1 أبريل 2004

ماكس لديه حق. سأل هذا الشخص عن التمساح. كانوا يدعونني بهذا الاسم منذ وقت طويل في الجامعة حين كنت أغني في فرقة أسميناها التماسيح الحمر القدامي. ذهبت أنا للسجن والفرقة انحلت وصوتي فقدته أما الاسم فقد ظل عالقا بي أما موسيقى البلوز، فقد استمرت رغم كل شيء.

حين يكون لدي شك في أمر ما اتصل بالبلو جى (دي جى البلوز) المفضل لدي، إدواردو فاسيو "سمكة القط" الذي يأتى من أجل تهدئتي فيزودني بمختارات من أغاني المطربين الصاعدين وكذلك المحليين وبعض "الكلاسيكيين المتميزين".

كان هذا اليوم هو يوم كذبة أبريل وبقيت منتبها منذ الصباح لماكس ذاكرة الذي يروق له المزاح. فوقوعي ضحية ألعوبة في اليوم المخصص لذلك بالنسبة لي بالذات واضعين في الاعتبار سرعة استثارتي لن يكون أمرا يثير عصبيتي أقل من المعتاد.

عاود الشخص الجالس على مائدتي الخروج. لاحظت فورا الخاتم الذهبي في البنصر الأيسر. كان على الجهة المسطحة نقش قد يبدو للوهلة الأولي صليبا. فوق الخامسة والخمسين، قوام مشدود حتى لو كانت هناك قطعة لم تقم بنشاط بدني ما. شعر أسود طويل حتى العنق، حلة غامقة كاملة ذات ماركة إيطالية، قميص فرنسي.

"أنت بقى التمساح؟". كان يتحدث الإيطالية بطلاقة لكنه بالتأكيد أجنبي. نظرة خاطفة للحذاء اقنعتني أنني لم أخطئ. حاولت و لم أفلح في أن أحزر اللكنة.

"ماسمعتش؟" استمر بعجرفة.

عرضت عليه الكاس الذي أمسك به. "ده أسمه التمساح" شرحت. "سبع أجزاء من نبيذ كالڤادوس، ثلاثة من مشروب درامبي، ثلج مجروش كتير وشريحة تفاح أخضر تقطمها في الأخر عشان تواسي نفسك عالكاس الفاضي اخترعه صديقى دانيلو أرجيولاس، راعي بار ليباريوم دي كاليارى".

ابتسم بلطف "خلصت تخريف؟".

"دانا ما بدأتش أصلا" استفززته، مفكرا أن هذا الشخص ليس شخصا مقرفا لكن لم يكن واضحا أيضا من يكون. شرطي، عضو مافيا، مرتزق، أحد أفراد المخابرات، من الصعب فهمه. قررت أن أستمر في تمثيل دور الغبي. وقد لاقيت نجاحا في ذلك في هذا اليوم بالذات.

"من النهاردة هاتشتغل عندي".

"أخيرا خبر كويس" انفجرت ضاحكا. "أتاريني كنت قاعد اسأل نفسي أمتى بقى هييجي الأمير".

"إيه عاوز بوسة عشان تصحي؟".

"هو أحنا في الحدوتة اللي بافكر فيها؟".

هز رأسه. "عاوز أأجرك عشان تحقق في سرقة المخدرات من معهد الطب الشرعي".

"أنت غلطان في العنوان".

نفس الابتسامة السابقة. هذا الشخص من النوع المفتقر للخيال. "أنت والاتنين اللي معاك تروحوا تلفوا لفة وتسألوا لحد ماتطلعوا بحاجة وهايتدفع لكوا مبلغ كويس".

من الجيب الداخلي لبدلته سحب مظروفا مليئا بالأوراق المالية كما جرت العادة وتركه يسقط في منتصف المائدة. لمحته بنظرة مشتتة.

"أنا لسة قايل لك أنت غلطان في العنوان".

"أنا عارف كل حاجة عنك. أنت الراجل المناسب".

"يبقى تعرف إني ما باشتغلش في المخدرات".

"المرة دي هاتعمل استثناء".

"ليــه؟".

"لأن الشغل الحلو مايتسابش أبدا" أجاب. "بالذات إذا كان الزبون ممكن يبقى شرير".

"امش!" همهمت

"أنت مش مصدقني؟" سأل بإحباط.

"مش هي دي المشكلة. بس الحقيقة أني في كل الأحوال مش باشتغل عندك. أنت فاهم ده؟"

قام. "هاتشوفني تاني".

ما إن استدار حتى ذكرته بالظرف فوق المائدة.

"ما فيش داعي للاستعجال" قال. "هانتقابل قريب".

شاهدته يخرج. لم يلتفت، بخطى واثقة، تلاشى. أخطر المجرمين اليائسين الذين خرجوا من جحورهم في هذه الفترة كي يورطوني في البحث عن الكنز المسروق من غرفة محصنة في قبو المعهد الشرعي للسموم. الإجابة كانت واحدة للجميع. لا أعمل بالمخدرات. بأي شكل. فقط يمكنني أن ألف سيجارة بمزاج من حين لآخر. نقطة من آخر السطر. فعالم تجارة المخدرات متعفن، بكل معاني الكلمة. والبقاء بمنأي عنه هو عين العقل. وعلى أي حال فمجرد قراءة الجرائد عن هذا الحادث تنذر بالعفن.

ففي الليلة بين السادس عشر والسابع عشر من مارس اقتحم احدهم

المعهد، كتب على لوحة المفاتيح شفرة تعطيل الإنذار للباب المحصن، ولارتباطه بأحد شركات الأمن، أدخل المفاتيح في القفل الذي تم تغييره قبلها بأسبوع واحد ثم أخذ حوالي خمسين رطل من الهيروين والكوكايين والعديد من المخدرات دون أن يتلطف ولو بنظرة نحو مائة وثمانين كيلو من الحشيش الممتاز.

أثارت السرقة غضب في بادوا الشريفة. وتساءل البعض لماذا يحفظ أساسا في المعهد مثل هذه الكمية من المخدرات إذا كان التحليل المعتاد يحتاج إلى عدة جرامات قليلة فقط. أمن الممكن ألا يكون في المدينة مكان أكثر أمانا؟

وبالصدفة، أتى الحل مباشرة من أول استجوابين برلمانيين، قاما بتفعيل اجراءات "ضد – الغواية": تقوم قوات الأمن بإحضار بضعة جرامات لمعهد الطب الشرعي للقيام بالتحليل ثم يتم الحرق في أقرب محرقة بعدها ببضعة أيام.

وطبعا لم تصل التحقيقات إلى أي نتيجة ملموسة. فمن الواضح أنه إذا كان أحدهم قد بلغت به الوقاحة لحد استخدام الشفرات والمفاتيح فلدي هذا الشخص مؤخرة مغطاة تماما ويعرف أنه لا يخاطر ولو بأقل قدر من الإزعاج. تمت الإجراءات المضللة المعتادة من محققين ليليين غير ذوى قيمة ونشرت اشاعات من قبيل "عمليات قبض محتملة خلال الساعات القادمة" لكنها كانت كلام فارغ من أجل سد فم الثرثارين العالمين بالأمور.

الأثر الجانبي للسرقة تلاحظ في وصول ثلة من رجال العصابات

المطلوقين، كما أطلق عليهم روسيني، لاقتفاء أثر الكنز. حثالة من النوع الذي يرغب في فهم ماذا حدث كي يحاول وضع براثنه على ما تيسر من نعم الله أو لعمل صلات مع المسؤولين عن السرقة، الذين قدموا دليلا على صلتهم بأشخاص يعملون بالجهات الصحيحة.

كان الشمال الشرقى سوقا ثريا ومزدهرا، لكن المنافسة ضارية والكل يلعب بقذارة، وعلى العديد من الموائد. واللعبة المفضلة هي بيع اللصوص المنافسين لرجال الشرطة المساكين المنشغلين دوما بمشكلة الحصول على أي أدلة، مع العلم بأن حتى تحليل مياه المجارى فضح الاستخدام الواسع للمخدرات. وأولها الكوكايين. دفقة حياة قبل وبعد العمل ومن أجل التسلية هناك نهاية الأسبوع. وإلا كم ستكون الحياة متعبة ومملة.

تمنيت أن يكون هذا الرجل الحقير ذو الخاتم السميك هو آخر مجرم خطير يلوح في الأفق وأن أحيل الأمر للأرشيف. لكن هذا التمني لم يدم سوى بضع ساعات. فحوالي الساعة العاشرة من اليوم التالي أيقظني رامزيوهو مهاجر غير شرعي من مالي يعمل بالنظافة. وهو رجل شجاع يحتاج أن يتعافي من رحلته الطويلة للوصول إلى بلد مرحب كبلدنا. ففي سن الخمسين من الغباء أن تواجه مغامرات مماثلة. ومغامرته هو تركت له من باب الذكرى قصر النفس وصفير يصعد من أعماق رئتيه.

أفهمني بإيطاليته المتقطعة أن أمام باب الوجار بالضبط، يوجد شئ ينبغى على بلا شك أن أراه. أرتديت المعطف فوق البيچاما وخرجت لألقى بنظرة.

"تعمل في معروف وتصحى ماكس؟" طلبت من رامزيبينما كنت ألاحظ كومة من الخيوط وأصابع المتفجرات.

"رأيي ده من الراجل أبو خاتم" قلت بعد قليل للسمين.

"تفتكر ممكن تنفجر؟" سأل هو بصوت ناعس. "بمعني أننا نبقى بيضتين يتفرجوا على قنبلة هاتنفجر؟".

"ماعنديش فكرة" أجبت. "بس شكلها مش خطر".

تدخل العامل الغير شرعي. "ناقصها فتيل التفجير" قال بالفرنسية.

ترجم ماكس ذاكرة وساله كيف نتأكد من ذلك. وكان بهذا الشكل أن اكتشفنا وجود جيش لدولة مالي.

"اتصل بروسيني العجوز" نصحت السمين قبل أن أعود للنوم.

ما حدث باختصار. في نفس الليلة عاد الرجل ذو الخاتم للمحل. استراح على نفس المقعد لكن في هذه المرة لم أكن وحدي. كان ماكس على يميني وروسيني على يسارى.

"اجابتي واحدة وهي لأ" أوضحت فورا.

تجاهل كلماتي. قام بعمل حركة تحية لأصدقائي. سحب مظروفا أخر ملئ بالأوراق النقدية وأغلقه ببطء مدروس ووضعه في وسط المائدة.

"ديناميت وفلوس" علق السمين. "هي دي بقى استراتيجيتك الكسبانة

عشان تقنعنا نشتغل عندك؟".

أومأ الرجل برضا. "أنا مستعجل" شرح مستديرا نحو بنيامينو. "عاوز نتايج بسرعة".

بقي قاطع الطريق السابق صامتا، مكتفيا بالنظر إليه بشكل يبدو مشتتا.

سحبت من الجيب الخلفي للجينز الظرف الأول ووضعته فوق الآخر. "أمشي دلوقت وماترجعش تاني".

"كان نفسي بكل سرور بس ماقدرش" قال بمسحة من الندم الكاذب "المكان مش عاجبني وأنتوا عدوانيين وسخفا لكن زي مانتوا عارفين في أولويات، وأنا مش في رفاهية تسمح لي أمشي من غير نتايج".

"ماشي لحلح نفسك واسأل حواليك".

"أنا جربت ده" اعترف متنهدا، "لكن أنا ماعرفش حد ولما أرجع الفندق الاقيني قدام ظابط بوليس في زيمدني بيضايقني لدرجة أني أديته حوالي ألف يورو عشان يسيبني ف حالي".

"ماعدش في بوليس زي زمان" علقت مشعلا سيجارة. "أما دولا فكريهين ومتعنطزين".

"انتوا مش عاوزين تعقلوا ليه؟".

"عشان مش هانفيدك "أجاب ماكس ملطفا". "ده مش مجالنا ومش هاننجح في اكتشاف حاجة".

"لكنهم أكدوا لي العكس".

"كانت تأكيدات متشرمطة" أصر شريكي. تلاعب الرجل بالخاتم. كانت هذه المرة الأولي التي ألاحظه فيها يقوم بهذه الحركة. يبدو أنه كان منزعجا للغاية. بعدها أدار سبابته في الهواء. "عموما مش هايكون صعب أن الديناميت يتصلح المرة الجاية... ".

ربما أراد انهاء العبارة لكن روسيني لم يمنحه الوقت. ذهب على قدميه وأمسك المقعد الخشبي الذي كان يجلس عليه وضربه على ظهر الرجل، الذي أطلق صرخة ألم ولاذ بالفرار.

وخيم على المكان صمت مجسد يمكن قطعه بسكين. وعبرت الوجوه الشاحبة والمنشغلة للزبائن بوضوح أن الأمر لم يعبر دون ملاحظة.

قام ماكس. "أسفين" وأضاف بنغمة وقورة، "خناقة بسيطة بين اتنين بيتخانقوا في أمور عاطفية. مافيش حاجة خطيرة".

ارتفع صوت أنثوى من العمق: "يا ماكس لو عاوزنا نصدق قصة رخيصة زياللي بتقولها دي يبقى لازم تدي كل الزباين رشوة".

تبادلت نظرة مع شريكي وقلت بصوت مرتفع. "يبقى الدور اللي جاى على حساب المحل".

بين صيحات الاستحسان من الزبائن سمعت صوت نفس السيدة: "أنت راجل ذوق يا ماكس وعاوزة أقول أننا لازم نمسح اللي حصل ده من الذاكرة عشان ننقذ سمعة المحل".

انفجرت موجة من الضحك وانتقلت إلينا. ضحك جميل. يحدث نادرا. وقد قرأت أنه مفيد للصحة.

"متنافسين في الحب.. "غمغم بينيامينو مصدوما" إيه الشكل اللي صورتني بيه ده؟".

"وأنت ماقدرتش تستني لما يخرج من المحل؟". اندفع السمين.

"أهدوا" تدخلت. "ماحصلش زفت حاجة خلونا نستمتع بسهرتنا".

حدق في بنيامين. "تفتكر الخرا ده هايهدي؟".

"أتمني كدة فعلا. ماعنديش أي نية أني أنام في فندق عشان خايف من متفجراته".

لم يستخدم الوغد المتفجرات كانت السوائل البسيطة القابلة للاشتعال، كافية لتدمير سيارتي السكودا فيليتشيا أول موديل لعام 94. حاول رامزي تعزيتي قائلا في البداية إن السيارة كانت قديمة؛ ثانيا، فبما أني ثري أقطن في دولة متقدمة يمكنني أن امنح نفسي ما هو أفضل.

لم أضع الوقت في أن اشرح له أنني كنت أحب عربيتي الفيليتشيا وأنه تبعا للإحصائيات كانت هي أقل العربات تعرضا للإيقاف في الأماكن التي تسدها الشرطة ولجان التفتيش العشوائية. ليس الأمر أن لدي شيئا أخفيه أو أخاف منه، لكن مجرد الرقابة التقليدية بالكمبيوتر في المطار ستعيد استخراج ماضيَّ كمعتقل سياسى ولن يكون هناك ما هو أسوأ من هذه الخلفية لينقلب عليك رجال شرطتنا المرحين، المحدودي الذهن أكثر

حتى من القساوسة. فإرهابي لمرة هو إرهابي للأبد في وجهة نظرهم.

حتى لو لم أكن أرهابيا أبدا. فقد لذت ببساطة بالفرار للمنفي دون أن أسأل العديد من الأسئلة وهم: ألقوني في السجن لسبع سنوات طوال.

كي أعثر على سيارة فيليتشيا أخرى في حالة جيدة فكرت أن أطلب مساعدة باولينا فالنتيني، عازفة جيتار مهووسة بنفس الموديل الذي يعجبني، رغم أن أسبابها مختلفة تماما.

وصل روسيني في المساء. "لازم أقتله" علق ملاحظا البقايا المتفحمة لعربتي الفيليتشيا.

"وده ضرورى؟".

"الأخلاق الطيبة مابتنفعش ولو الإشاعة اتنشرت هانبقى مداس لأي حد".

بحثت عن نظرة ماكس لكنه اكتفي برفع كتفيه.

انضم سوار ذهبي جديد للذين كانوا يتدلون من معصم بنيامين كانت هذه طريقته في إظهار مخالبه. أو في أخذ الحساب، لم أفهم هذا أبدا. وبدا لي الأمر حساسا للغاية أكثر من أن أواجهه به بسؤال بسيط.

لم أكن مقتنعا. بأي شيء. "ماتيجوا نخوفهم خوف مهول ونشوف اللي هايحصل".

أومأ قاطع الطريق السابق إيماءة محتارة. "أشك في أن ده يفيدنا لكن أتمني أنك تكون على حق. يمكن يكون أغبي حتى من أنه يموت".

عاد الرجل لليلة الثالثة على التوالي. واقترب حذرا، مراقبا حركات يدي روسيني العجوز.

عرض علينا ظرفي النقود. "عربيتي الفليشيا تساوى ظرف تالت" غمغمت بغضب.

"مافيش مشكلة".

"يمكن يكون عندنا سكة "كذب ماكس.

"ماشي؟" سأل الرجل، آملا.

"الأول عاوزين نعرف اللي يهمك فعلا. السرقة؟ اللي نفذوها؟ اللي دبرها؟".

"ماقدرش أقول".

"ماتقدرش ولا ماتعرفش؟" استفززته، مقترحا كونه مجرد مساعد.

"ركزوا على اللي ممكن تكتشفوه. أما أنا اللي يهمني هافكر فيه بنفسي" أجاب مستفزا.

"بس، الحاجات مابتتاخدش كدة" تدخل السمين.

"إحنا جايز، وحط خط تحت جايز، نكون اكتشفنا فين راح جزء من الهيروين. اللي هانقدر عليه أننا نجيب لك البياعين اللي بيبيعوه وانت تعيد ترتيب الفقرات. مش هانعمل أكتر من كدة".

"موافق. ممكن أقابلكم إمتى؟".

"بكرة بالليل".

اتفقنا على موعد تقريبا خارج ميسترى قرب المطار، لكنه قبل أن يذهب ادعى أنه سيعوضني عن خسارة السيارة.

"شكله مزيف" علقت بينما كنت أعد الأوراق النقدية تحت المائدة.

"ليه؟" سأل روسيني.

"الفلوس اللي خرجت من جيبه النهاردة عنده إمكانية شراء متفجرات أوموقت، عارف ازاى يفجر العربية ومع ذلك لسة بيديني انطباع أنه عبيط". شرحت. "عنده طرق ذكية جدا وصعب أصدق أنه شرب التمثيلية اللي عملناها النهاردة".

رفع روسيني كتفيه. "عموما في السكة هانعرف كل حاجة المحترفين دلوقتي بقوا نادرين فعلى طول هانعرف. بس لو جه عاوز أقول إنه هايكون غبي فعلا".

"يمكن رؤساءه مش كدة".

"ماشي مش هايمر وقت طويل على مايكتشفوا أن ابتزازنا على طول مش فكرة كويسة".

أثبت الرجل ذو الخاتم أنه ساذج فعلا. فقد أتى، في موعده وبدون مرافق، في منطقة مهجورة تماما، حيث قامت الحفارات منذ فترة قصيرة

بتحويل الريف لساحة متربة، قدر لها أن تستقبل أفرع الأوتوستراد والجسور المرتبطة به. كأنها قطع من تحفة البنية التحتية التي قام حاكم المنطقة السابق بإنشائها خطوة بخطوة كي تذكره الأجيال القادمة كرجل دولة لامع.

وتقريبا في الوقت الذي نزل فيه من السيارة صوب نحوه روسيني زناد بندقية في رأسه ودفعه لحافة حفرة كبيرة. يمكنها أن تسع جثتين آخرتين، في حالة أنه أتى بصحبة، كانت هذه طبعا هي فكرة بنيامينو المتبنيء. فلا يمكن أن نحلم أنا أو ماكس بأن نتعب أنفسنا باستخدام الجاروف والمعول دون أدنى تأكد بعدد الضيوف التي ستستضيفهم.

"دي عشانك" همس قاطع الطريق السابق. "لو اختفيت من حوالينا هاتفضل فاضية".

من بين كل الردود المحتملة كان الذي قام به الرجل هو لكزه بكوعه في معدته فالتصقت سبابة بينيامينو بالزناد وانطلقت رصاصة لتستقر برأس ذلك الرجل الغبي. حتى أنه مات قبل أن تلامس ركبه الأرض.

بقى روسيني منبهر الأنفاس لبعض اللحظات. "عمرى ماشفت حد مصر كده أنه يتقتل".

يقيننا بأننا أمام هاو خطر جعلنا أقل حذرا. لم نضع وقت في تفتيش جيوبه أو العربة، التي قمت أنا بنفسي بنقلها حتى فيتشنسا. بعدها استخدمنا أمر العثور على خاتمه من باب اللياقة حتى يعرف أصدقاؤه ورؤساءه أو زملاؤه أنه تم القضاء عليه.

هذا كل ما في الأمر. في اليوم التالي كان كل شئ قد تم نسيانه. وبلا أدنى ندم. لقد حاولنا إفهامه بكل الطرق أنه أخطأ في الأشخاص.

ومن أحد الثلاثة أظرف تم إعادة شراء فيليتشيا. للأسف لم أجد أول موديل وكان على أن أرضى بموديل 96. الظرف الثاني استخدم لعلاج وتسجيل رامزى. أما الثالث فقد عثر عليه في صندوق بريد إحدي الجمعيات التي تعمل بإعادة تأهيل عاهرات الشوارع. فالأغلب الأعم منهن كن عبدات مجبرات على العيش في جو من الرعب والعنف اليومي. كنا نكن أعظم تقدير وإعجاب بالمتطوعين اللذين يحاولون كل ليلة إقناع أحدهم بتحريرهم.

مرت الأشهر التالية في هدوء. كان الخبر الوحيد الجديد في 2004 هو عودة سيلفى في بدايات ديسمبر. احتفلنا في الوجار. ورقصت هي لنا. كانت ليلة لا تنسى. وكان العجوز روسيني أسعد رجل على وجه الأرض.

وصلت وقالت لي "أنا رجعت للحرامي بتاعى" همس بتأثر واحتضنني.

الثلاثاء 14 نوفمبر 2006، بعد أسبوعين من اختطاف سيلفي

دخل ماكس ذاكرة شقتي دون أن يقرع الباب ملتحفا بمعطف من الألوان الزاهية. "في قصة السرقة دي مافيش حاجة مؤكدة" هاجم بصوت مقتضب. "ولا حتى كمية ونوع المخدرات".

"عاوز تقول إيه؟"

"الأول بان أن اللي كان ناقص من الجرد هو أربعة وأربعين كيلو منهم تلاتين كيلو هيروين وعشرة كوكايين وأربعة أمفيتامين وحبوب الهلوسة وحبوب مخدرة تانية. وعلى العكس من كدة اكتشفت رد كتابي من سكرتير وزارة الداخلية على استجواب برلماني ليونيو 2004، يستنتج منه أن عدد كيلوات الهيروين 94 والكوكايين 6 و2 كيلو دخان".

"حوالي 13 كيلو فرق دي مش كمية قليلة" علقت، راميا بحطبة في الموقد.

رمى السمين نفسه على الأريكة. "عاوز تعرف بافكر في إيه؟".

"ياريت" أجبت. "عدي يومين وماخرجتش من شقتك".

مرر كفه في شعره المشعث. "الحرامية كانوا عاوزين الهيروين".

"وظيفة بعمولة. عملوا الحركة المناسبة في المكان المناسب عشان يلاقوا اللي يساعدهم على فتح الباب".

مرر لي ماكس مقالا في الجريدة. "مش متأكد أن الدافع هو التجارة".

بدأت في القراءة. كان عنوان المقال "لا مخدرات، كلهم أبرياء". لمحت التاريخ: 3يوليو 2004.

"مذنبين، ربما، لكن طلقاء. هل ستحدث محاكمة سرقة معهد الطب الشرعي ذائعة الصيت أثرا عكسيا؟ هناك مخاطرة أن نرى من قاموا بالإتجار في هذه المخدرات تتم تبرئتهم.. فقد عرض النائب العام التفاوض على تخفيف الحكم، بينما اختار محاميى المتهمين الطريق المختصر وفقا لما يتم تداوله في وزارة العدل. أي اللجوء لدرجة واحدة للتقاضى. الصفقه إذن هي كل شئ أو لا شئ البتة..".

"عادة بيكون الموزعين أشخاص مالهمش قيمة وجاهزين عشان يضحوا بيهم" قلت بقناعة مهتزة. "عمرى ماسمعت عن منظمة تحط خطة معقدة زيدي عشان تنقذ طيظ موزع بسيط".

"يمكن مايكونش بسيط كدة، ويمكن وراه حاجات أكتر".

"يمكن. بس ماعرفش أزاى ده هايساعدنا نتعرف على الراجل أبو خاتم أو نكتشف عملوا إيه في سيلفى".

كلما نطقت باسمها شعرت، كما هي العادة في الأيام الأخيرة، بطعنة في فم المعدة. فعدم معرفة مصيرها بشكل مؤكد تسافر بالعقل نحو أراض تغزوها كوابيس عنيفة ليس لها مثيل. امرأة جميلة، ثأر... كل مكونات الكابوس كانت حاضرة فلم استطع أن أنجو بنفسي من الأفكار السيئة.

"أنت ماكنتش بتسمع" وبخني السمين.

"اعذرني، ماقدرش مافكرش...".

رفع ماكس يده ليخرسني. "تعالي نتفق. ماركو خلينا نتعامل معاها على أنها قضية حد تاني وإلا هانتجنن. واحنا مش هانسمح بده".

اومأت ودعوته أن يواصل الحوار.

"إعادة ترتيب قصة السرقة اللي اتحشرت فيها اطيازنا من أول وجديد ضروری بلا شك لأننا محتاجين أكبر عدد من العناصر عشان نحدد دور المرحوم. أنا عملت بحث عن الخاتم: هو كافاليه والجزء المسطح اتحفرت عليه علامة النبالة".

"من النبلاء؟".

"أشك، النوع ده من الصلبان فج جدا في تصميمه ومش موجود زيه في أي لستة من شعارات النبالة الموجودة ع الأنترنت" أجاب. "بالتأكيد هو مش بتاع سلالة معروفة".

"وإيه كمان؟".

فرد زميلي ذراعيه. "ده كل اللي قدرت أكتشفه".

تأملت زجاجة نبيذ كالفادوس روجيه جرول "الموقر" ثم الساعة المعلقة على الحائط. الساعة الآن السادسة عشر وعشرون دقيقة. تنهدت. ينبغى على أن انتظر كثيرا كي أهاجم بالكأس الأول. مر حوالي عامين منذ أن فرضت على نفسي ألا أشرب إلا بعد العشاء، الطريقة الوحيدة كي لا أصبح مدمن كحول. لكنني أصبحت في كل يوم مقدس بلا شاغل سوى مراقبة العقارب.

قفش ماكس نظرتي وابتسم. "فاهمك" قال بصوت رفاقى. "للسبب ده باحترس قوى من إني أزنق نفسي في نفق نظام غذائي. وإلا دايما هاقعد أعد الدقايق بفزع لحسن يجيلي فقدان الشهية المرضى".

أشرت له على زجاجة النبيذ. "خد كاس في صحتى وبطل الخرا اللي بتقوله ده".

"في صحة صاحبي الكاس ده وواحد تاني كمان".

"ليلة امبارح.." بدأت أحكي.

"كنت باتفرج على إعلانات الخرا التلفيزيونية المتعادة" مازحني.

"كنت باسترخى زيما أنت عارف..".

"لكن بين المرتبة وأدوات المطبخ...".

"مر ف بالي أن الراجل قال لنا قبل ما يبدأ يدور عليّ أنه حاول

يتصرف واتشنكل في ظابط سحب منه مبلغ كبير باليورو عشان يسيبه ف حاله".

"أيوة فاكر".

"لو الكلام ده صح يبقى معناه أنه قبل ما ييجى المدينة هنا ماكانش عنده أي فكرة عننا".

فهم ماكس أخيرا "يعني الظابط هو اللي عرفه بأسمك".

"بالظبط".

"ده في حالة أن الراجل ده ماكانش بيقولنا أي كلام بيضان..."

"هو خيط يستحق المحاولة".

"موافق خلينا نستني روسيني".

"هو على وصول. أنا اتصلت به من نص ساعة".

كان وجه بينيامينو ممتقعا وعيونه غائرة من التوتر. كان كالعادة مثاليا: حليقا، معطرا ومهندما لكن الألم حفر بداخله هوة.

كنا أصدقاء فلم أضع وقتا وقلت له ما دار بذهني. "واضح أن الأيام اللي قضتها في دالماتسيا دي ما فادتكش كتير".

هز رأسه. "أنا جبت أخرى" اعترف. "ولأول مرة يمر في بالي أفكار وحشة".

فهمت تماما ما قصده. فلنكتشف الحقيقة، ننتقم ثم ننهيها. لم أرد.

بجانب أنه بلا داعي. ما الأسلوب الخراء الذي يمكنه أن يحيا به وتراجيديا قاسية كهذه تعلق بمؤخرته؟ للحظة فكرت أنني محظوظ لأن كل ذلك لم يحدث لي أنا.

"لكن" تعجبت بصوت مرتفع. "ليه ما حصلش ده كله ليا أنا؟".

أدار نحوى الاثنين الأخرين نظرة متسائلة.

"ليه ضربوا بنيامينو وما أخدوش ڤيرنا؟".

"يمكن لأنها سابتك" أضاف ماكس.

خلع روسيني معطفه من وبر الجمل. "لأ. عرفوا أن من بيننا أحنا التلاتة أنا الوحيد اللي بيحب وعشان كدة كنت أول واحد بيتعاقب".

"وده نفس اللي بافكر فيه" قلت. "لكن ده معناه أن في حد حوالينا هو اللي إدي الراجل المعلومات. وف رأيي هو نفس الظابط اللي إدي الراجل اسمي".

"أنهي ظابط؟" سأل المهرب. فشرحت له نظريتي.

"يبقى لازم ندور عليه" استنتج.

"محتاجين فلوس سايلة" لاحظ السمين.

أشار بينيامينو للحقيبة التي يحملها. "أنا كسرت الحصالة" أعلن. "ممكن نتحرك".

ركبنا عربة سيدان فرنسية مرفهة، رغم توقف تصنيعها منذ بضعة

سنوات. أخذها روسيني لأن داخل صندوق الموتور الخاص بها مساحة تبدو كما لو كانت قد صنعت خصيصا لتخبئ مسدسين. كانت تذكار من الرحلة الأخيرة ليوجوسلافيا السابقة، قطعتين جديدتين تماما لو وقعتا في يد الشرطة لما أخبرتهما بأي شئ مثير.

بدأنا في دورات تحقيق مع مخبرى رجال الشرطة. ودفعنا أوراق نقدية جديدة لنحصل منهم على أخبار من يوكلون إليهم بالمهام.

"سـؤال مش عـادي" علـق راسكيو، مدمـن هيرويـين سابق تحول للكوكايين ويعمـل في ميادين وسط البلد مختلطـا بشعب السبريتز ليرصد ويبلـغ عن المتعاطين المعتادين أكثر من الموزعين. كان تخصصه أن يخوزق المدللين اللذين يشمون لكن لو تم قرصهم لمرة، كيلا يقعوا في ورطات ولا يدمـروا مستقبـل وظيفي أو سمعة طيبة، سيصبحـوا هم بدورهم مخبرين. هكذا كانت تدور المعركة في السوق.

إسم راسكيو مشتق من صوت يشبه مبرد يتعامل مع قضيب من الحديد. "يمكن الظابط بتاعى يكون مهتم بده برضو" أضاف بنغمة ماكرة.

"أحنا بندور على حد معين عشان يعمل حاجة كدة" شرحت متلاطفا. "ولما نلاقيه ويعرف أنك ماتصرفتش صح ممكن يضنك"

فكر ريسكيو في الأمر وقرر أنه سيسعد فقط بنقودنا. كان يعرف سمعة روسيني، وحتى لو لم يكن ككل "المخبرين" عبقريا إلا أنه فهم أنه من الأفضل ألا يغامر بخوزقته.

"بس يا جماعة هيكون في جيش منهم.." علق السمين في أخر المساء ثائرا. "ده من حسن حظنا أننا مستهدفين قسم المخدرات بس".

"وأحنا منش عاوزين غير الأمنا اللي كانوا شغالين في 2004" صححت.

"أنا زهقت من أني باقابل الخرا دول وباخليهم أغنيا بفلوسى" تدخل روسيني بأسوأ مزاج. "ناكل بيتزا وننام وبعدين نكمل بكرة".

لم أكن قد شربت كأسا بعد. تذوقت التركيبة الثلاثية التي سأحتسيها بعد أن أتمدد على الأريكة أمام المدفأة.

في اليوم التالي لم يرنا روسيني وجهه إلا قليلا قبل منتصف النهار. "تعالوا نروح نشرب مع العرردول".

كانت هناك كل الأنواع والأجناس والجنسيات. فعالم المخبرين متنوع ومعقد. ويحمل كل منهم على كتفيه قصة مختلفة، إلا أن الابتزاز في كثير من الأحيان لا يكون هو دافعهم لخيانة المقربين. فبعضهم يعامل الأمر كمحض وظيفة. كما في حالة مورينا بوروميو. فقد حاولت مهن حقيقية ومناسبة لكنهاى لم توفق فيها أبدا. كانت لطيفة بالتأكيد وتعرف كيف تتأنق وبدأت في التردد على محال الموضة. وبعد سلسلة من الخطوبات الفاشلة مع ابناء تجار ميسورين، بدأت في الشم والاستسلام للدعارة في الخفاء. زبائن قليلون، مختارون وممولون جيدا. ومع ذلك انتهت إلى

مستنقع صغير، لكن حظها الحسن أوقعها في شرطي متعاطف وله أساليب لطيفة قدم لها بديل مناسب، حيث أفهمها أنها تعرف رزمة من الأمور التي تعادل نقودا رنانة لو تمت مبادلتها في السوق.

وهكذا أصبحت مورينا متخصصة أصيلة في الوشاية. كانت تجيدها، فقد كانت، ويا للعنة، نابهة في إقناع الناس بإفراغ ما في جعبتهم. بالذات الرجال. قصة قديمة قدم التاريخ: الرجال في الفراش يتحدثون دائما. والأشرار أكثر من الآخرين. ربما لا يفصحون عن أسرارهم هم أنفسهم، فعادة كي يتجملوا يقصوا أسرار أشخاص آخرين. أما هي فكانت جاهزة لاستقبال، وإرسال واستغلال المعلومات.

كنت أعرفها جيدا. في أحد المرات غازلها أحد رجال الصناعة بإحدي المدن، كون ثروته من صنع عجل الدراجات. ثم بعدها وفي اللحظة المناسبة انتقل لرومانيا لأن دفع الضرائب للصوص روما والتعامل مع النقابات كان ليصبح بمثابة انهيار كبير بالنسبة له. فكر الشحرور أن يجلب امرأة للفراش وأسر لها أنه تعب من الفتاة القاصر التي ابتلي بها في تيميسوارا. مورينا، وبينما كانت ترتدي سراويلها طلبت منه هدية إضافية كي لا تفضحه وتحكي لزوجته كل شيء.

لجأ الرجل لمحامي، قام بدوره بتكليفي بالموضوع. لم أرد في البداية أن أعرف بالأمر. بدت لي قصة استغلال جنسي بجانب الاحتيال والنقود. لكن رجل الصناعة كان يريد مقابلتي بأي ثمن وحكمت أنا بأنه عليه مبدئيا أن يترك الرومانية ذات الستة عشر ربيعا في سلام بالإضافة لمنحها

عملا ومساعدة أسرتها. وضمن المحامي الوعد. قبلت، كانت الطريقة الوحيدة التي تخرج بها الفتاة من الأمر بركلة في مؤخرتها. أما عقد اتفاق مع مورينا فكان أكثر تعقيدا. فقد قامت بدور سيدة المجتمع، فأعطتني موعد في سلسلة مطاعم غالية وأطلقت رقما فلكيا طبعا. إلا أنني نجحت في انهاء الأمر على خمسين ألف برضا من الرجل المبتز.

بعدها صرنا نلتقى كل فترة في أماكن الشرب. وكانت تحييني بحماس شديد كما لو كنا أصدقاء قدامي. معها، احتفظت دائما بموقف مهني، مجامل ومبتعد، لكن في الحقيقة هي أعجبتني إلى حد ما. الحد الكافي للذهاب للفراش. في أحد الليالي أسررت بذلك لأصدقائي بحثا عن التشجيع. خطأ أخر.

"بس أزاى تفكر في حاجة زيكدة؟" وبخني ماكس. "دي عاملة زيالساحرة الشريرة اللي في قصة بيضاء التلج".

"ماركو حبيبنا بتعجبه الشراميط الخطيرة" حكم بنيامينو. "زيالمرة أياها في ساردينيا اللي نام فيها مع قاتلة سيكوباتية".

"فاكرها كويس. جينا مانيس المشهورة" علق السمين.

"مافيش داعى نطلع القصص القديمة" اعترضت.

"صح. بس أنت مابتفهمش أي خرا عن الستات" اختصر روسيني العجوز الأمر وغيرنا الموضوع.

لكن في ذاك اليوم الذي وجدتها فيه تطفو فوق كرسى بار بساقيها

المتقاطعتين وهما تتجليان من ثوب قصير وأنيق، فكرت أنني اخطأت بعدم التجربة. ولو لم أكن مصدوما هكذا بهجر سيلفى لدعوتها على شراب.

لم تفت مورينا نظرة اعجابي. "أنت هنا عشان المتعة ولا الشغل؟"

"الشغل".

"بس أنت عاوز تعمل الحاجات التانية صح؟".

"لا".

عقدت شفتيها كطفلة ساذجة. "كداب".

رغبت مورينا الاستمرار في اللعبة. لكن رؤية صديقاى الاثنين جعلتها تدرك أن لحظة فتح الموضوع قد حانت.

"في أعياد رأس السنة لازم أجيب كوم من الهدايا" أعلنت.

"ده بيكلف وقت كتير".

"اخرسى واسمعى" هس روسيني.

"صاحبك راجل ذوق فعلا" علقت وهي تنزل من على المقعد. اخذتني بالحضن وأشارت إلى مائدة منعزلة. "باتكلم معاك أنت بس".

شرحت لها نوع المعلومات التي نبحث عنها. وسعت منخاريها منتشية بسيرة الكوكايين كذئب يتشمم فريسته.

"ممكن أكسب كام".

"ماتتحمسيش أوى" قلت بنغمة ناعمة. "الحكاية بسيطة".

غمست أصابعها ذات الأظافر المطلية بالأحمر في الكأس وسحبت شريحة البرتقال. مصتها بهدوء كي تظهر لي تمكنها. "مش مصدقاك".

"تبقى غلطانة".

"بالنسبة للبوليس التحقيق في موضوع سرقة الخدرات مقفول" شرحت. "لو اتصلت بالظبوط اللي بيدفع لي مرتب أخر الشهر وقلت له أني ممكن أكشف له أسماء المسئولين عن السرقة مش هايديني حاجة".

أرهفت أذني. "أزاى يعني؟".

قامت بحركة من يغطى وعاء بغطاء. "زيما قلت لك: التحقيق اتقفل".

"واضح أنك مش عارفة حاجة".

ابتسمت. في هذه المرة لم تكن مغوية على الإطلاق.

"يمكن. بس لو عرفت حاجة هاعوز عشرألاف يورو".

"أنت مش في السوق" قلت وأنا أنهض.

امسكت بمعصمي. "ظبوطى اشتغل في التحقيقات بس بشكل غير رسمي فهمت؟".

ممتاز. لكن هذا لم يكن الظرف المناسب لإبداء الكثير من الاهتمام. "زيناس كتير في الوقت ده".

قامت وقربت فمها من أذني. "بالنسبة له في حاجتين بيعجبوه" همست.

"الفلوس والطريقة اللي بامصه بيها".

أثار نفسها الساخن رعشة امتدت عبر سلسلة ظهرى. "رقم محمولي ماتغيرش" تمتمت وأنا ابتعد.

في أخر النهار فقد روسيني العجوز صبره مع مأفون خرج بعد حصوله على تخفيض في حكم طويل بالسجن لاختطافه شخص ما وكان يحاول النصب علينا. ونسى أن ثلاثتنا كنا ضيوف على الدولة ونعرف كل حيلة في فنون النصب. عثرنا عليه في مشرب وجلس الأبله بجوار بنيامينو الذي اكتفي بمد يده كي يجذب خصيتيه ويعتصرهما بقبضة أكسبته سمعة اسطورية في عالم قطاع الطريق.

فغر الغبي فاه من الألم، عاجزا عن اخراج أدنى صوت، وأسند وجهه على المائدة. "روح نيك نفسك" همس روسيني.

"سيبه ف حاله" قلت، قلقا من أن يجذب المشهد انتباه أحدهم. "السجن أذاه".

"ليه، تعرف حد السجن عمل فيه خير؟" استدار ماكس بلهجة ساخرة.

"كانت طريقه بس عشان أطفشه".

لم يفلت السمين عظامه. "بينيامينو قضى سنين أطول منه في السجن" دقق. "عاوز تقول إيه؟ أنه اتبضن أكثر من الحلوف اللي قدامنا ده؟".

تحرك الخاطف السابق نحو الجدار ليتقيأ. وبالكاد تكرمنا عليه بنظرة.

"إيه اللي بيحصل؟" سألت. "أنت نفسك تتخانق؟".

نفي السمين. "الحقيقة أنك ساعات بتقول أي كلام فاضي في 40 سنة سجن قاعدين على الترابيزة دي وأنت بتنكت."

قام روسيني العجوز. "دلوقتي كفاية" ثم استدار لماكس: "في المرة الجاية لما تنام مع دكتورة نفسية من إياهم ابقى أطلب منها تساعدك أنك تعدي قلق السجن ده. هو ماعملكش حاجة جامدة عشان تعيش دور اللي اتحكم عليه بالمؤبد".

كان السمين على وشك الرد حين دخل النادل. ذو لكنة شرقية. ربما يكون أوكراني. وأشار للرجل المنثني على الطاولة وبقايا الغداء على الرصيف. "مين بقى اللي هاينضف دلوقتي؟" سأل بقرف.

"الحقيقة البيرة اللي بتقدموها هنا مثلجة زيادة" تذمرت.

"ومخلوطة بالمية" عاد بنيامينو.

مررت بجواره ودسست ورقة بنك نوت فئة العشرين في جيب قميصه. "أسفين".

كنت أتعارك مع ماكس كل حين وأخر. كان الأمر أندر مع بنيامينو وبعد عشر دقائق كانت مضايقته تمر. ماكس ذاكرة على العكس كان أكثر حساسية مني وفي بعض المرات تمر أيام قبل أن يقوم أحدنا بخطوة أولي للتصالح.

في هذه المرة على العكس كان الموقف مختلف و لم أضع وقت. "من هنا ورايح هاحاول أقلل اشاراتي بخصوص السجن".

انفجر ماكس ضاحكا "إيه الخرا ده. أنت مادتنيش فرصة حتى عشان أكشر".

حين صعدنا السيارة خطفت نظرة على المرآة الجانبية ورأيت السمين ينظر بحزن من النافذة. لقد ضربته كلمات بينيامينو بقسوة، إلا أنه كان على حق تماما. فالسجن وحش حقير وإذا قابلته فسيكون عليك دفع الحساب إن آجلا أو عاجلا. والإشفاق عليه في كل المواقف لا يفيد بشيء.

في المساء نزلنا الشوارع لنبحث عن مومسات ومتحولين جنسيا يشتهرون بكونهم مخبرين. ووجدنا زوجا فقط منهم. كان الأخرون قد انسحبوا.

"الأوقات الحلوة خلصت" حكمت أنجيلكا، متحولة لا تستطيع استخدام الميني جيب القصيرة جدا كي تتجنب ظهور العضو المعلق بين ساقيها. "كل البضايع دلوقت مستوردة".

"بس أنت ماعملتيش العملية؟" سأل لروسيني.

"مافتكرش. هاخسر شغلي" ردت بحزم "الرجالة الصغيرين زيكوا بيعوزونا من الناحيتين".

كانت صريحة للغاية، أوضحت فورا أنها لا تستطيع مساعدتنا. فقد سوت حساباتها مع الشرطي الذي كأني يبتزها والآن تتدبر شئونها الخاصة فقط. لم تقبل المال الذي عرضناه عليها مقابل الإزعاج.

"الجو برد زيادةماينفعش أفضل في الشارع وحاسة أني جعانة" قالت. "ماتونسوني؟".

أخذناها في السيارة وذهبنا لنأكل طبق سباجيتي في محل على أطراف المدينة.

وعدنا للوجار في الوقت المناسب للإغلاق. انزلنا روسيني عند المدخل وتابع هو حتى بونتا سابيوني. عرضت عليه المبيت عندي، لكنه لم يرد أن يتوقف مثل الليالي الأخرى، فربما خرجت سيلفى من الظلام الذي ابتلعها. لم يقل ذلك صراحة، لكن الأمر بدا كذلك.

ما أن دخلت المحل صدمني وجود رودي سكانفيرلا خلف البنك، وهو يشرع في تجفيف الكئوس بسحنة جنائزية. فهمت في ظرف لحظة لماذا. فقد كان هناك شخصين يجلسان على طاولتنا. تبادلت نظرة مع زميلي.

"ظباط" همس

حرس قديم. شعر أبيض، وجوه تركت فيها النوبات الليلية والمنبهات آثارها. زمن يكتسب إيقاعه من القهوة والسجائر. قام أحدهم بإشارة تدل أنه سيتجه نحونا. كان ذو لحية تشبه لحية التيس بيضاء ومشذبة بشكل جيد.

اتجه مباشرة نحو لب الموضوع "أنتم سألتوا شوية اسئلة في جولتكم. وأحنا عاوزين نعرف ليه".

"حد كبير بعتكوا ولا بتعملوا ده بمبادرة منكم؟" سألت.

"بيوراتي، ماتستهبلوش وجاوبوا اسئلة الزميل" تدخل الآخر.

"ماعنديش اللي أقوله للزميل".

"أنت عارف أننا ممكن نخلي عيشتكوا صعبة".

نظرت للسمين. الآن جاء دوره "في محامي فاكر ..."

"اخرس" صرخ.

"لأ دانت اللي تخرس!" حذرت صاحب لحية التيس.

"كنت باقول" استمر ماكس "أن في محامي كلفنا بكدة عشان واحد من عملاؤه قال أنه يعرف اللي سرق معهد الطب الشرعي وكان عاوز يتأكد قبل مايوديه لأي قاضى أنه مش هايخلي منظره خرا".

"ومين بقى تاجر المخدرات ده" سأل الآخر.

يا سميننا العزيز.. برطم زميلي باسم ولقب مهرب تركي ألقى القبض عليه منذ عدة شهور بخمسة كيلو هيروين. استرخى الشرطيان.

"كلام فارغ" قالها بحسم لحية التيس البيضاء ممررا يده في لحيته.

وقت إشعال سيجارة والانقلاب إلى الهجوم. "رغم كدة كنتوا بتدوروا على ظابط معين، صح؟".

"التركي قال أنه الحفار" خاطر السمين.

تجسدت ابتسامة رضا على شفاه كلا منهما للحظة. الآن تأكدا أننا فعلا خارج الطريق. نهضا.

"سيبوا القصة دي" قال لحية التيس بتجهم. "ودي مش نصيحة. دا أمر".

ثم غادرا تاركين الباب مفتوحا.

"وصلوا في نص الليل" حكي رودي وهو يخرج من البنك ليغلق الباب. "قعدوا على الترابيزة وماطلبوش حاجة وقعدوا يبحلقوا في الزباين. في ظرف تلت ساعة ماتبقاش ولا واحد قاعد".

"أهدي مش هايرجعوا تاني".

"دول كانوا إيه في رأيك؟" سألت زميلي.

"عساكر دورية، أموال، بوليس...".

"ماعنديش أي فكرة. بس أنا ماشفتهمش قبل كدة".

"ولا أنا. وأنا كنت مقتنع أني عارف كل عساكر الحرس القديم".

لمدة ستة وثلاثين ساعة لم يحدث شيئا. وكان روسيني يتصل كل فترة ليعرف إذا كان هناك أي أخبار، وكانت نغمة صوته تفضح عدم راحة متزايدة.

كنت استمع لصوت بيرسى مايفيلد الخنف الذي كان يغني You don't exist no more (أنت لم تعد موجودا) حين رن المحمول ليغطى على أنغام البلوز.

"عشر آلاف من غير فصال" سددت مورينا ضربتها عبر السماعة.

أغلقت الخط. ليس لأننا لم نكن مستعدين لدفع أي مبلغ لمعرفة أي شيء يساعدنا على إلقاء الضوء على خطف سيلفى، لكن لأنني كنت أعرف مورينا جيدا لأعرف أنها ستقذفني بمبالغ مستحيلة إذا لم أجعلها تحترمني في الاتفاق.

عاودت الاتصال بعد عشر دقائق. "لقيت الظابط اللي بتدوروا عليه".

"النهاردة أنتي سادس حد يقوللي نفس الكلام" كذبت.

"لكن أنا بس اللي معايا الاسم الصح".

"بالمبلغ ده الموضوع مايهمنيش".

"أنا قلت لك أن الموضوع هيكلفك غالي".

"كلميني لما تكوني واقفة على كوكب الأرض".

"ماتقفلش..."

"عندك حاجة تانية تقوليها؟".

"ممكن نتكلم عالعشا عن الموضوع ده".

مطعم لمدمني الكوكايين. الطعام بالكاد يؤكل، جو لا بأس به، منمق، مزين كعلبة حلوى، يتردد عليه المدمنين الصاعدين من الجنسين. كنت أعرف المالك. تم سجنه لبضعة سنوات لمتاجرته بالمخدرات، بعدها "حط عقله في راسه" وافتتح محل للتوزيع في سلام مقدس. و لم يعد أحد "يضنه" بعد أن أصبح يدفع بانتظام. لم يعد حتى بحاجة لينقل معلومات، يكفي

الثلاثـة أظرف التي تأتي ثـلاث أقسام شرطة مختلفـة لتسحبها. وليس من قبيـل المصادفة أن يكون من ضمـن العملاء أسمـاء ذات أهمية في بادوا. دخلت ملاحظا زوجـا من الموائد يسوون أمور قانونيـة بشكل أو بآخر، وثلاثـة أو أربعة آخرين يتعشي عليها أزواج من المحبين وأخيرا هي، سيدة المخبرين، التي كانت تنظر لي باسمة.

"هو أنا قلت لك قبل كدة أنك بتلبس هدومك بأوحش شكل؟" سألت بينما كنت أجلس.

"غالبا".

"شكلك فعلا زيالمهاجرين واحد من اللي جايين من الشرق...".

"في مرة قلتي لي أن شكلي زيالزنجى".

"كنت لابس قميص حرير بنفسجى يا اهبل"

أما هي فكانت على العكس ترتدي ملابسها لتخلب لب الرجال. وقد نجحت في ذلك. كنت صفيق عامداً وأنا أنظر لها، مبديا تعبيرات الإعجاب فأخذت تضحك بصوت عال.

"لو مديت إيدي تحت الترابيزة أراهن أني هالاقى حاجة صلبة" قالت بمكر.

"هانم زيك ماتعملش حاجة زيدي أبدا".

ضحكة أخرى. وصلت النادلة بالقائمة. خلاسية. مؤكد -تقريبا-

أنها كوبية. لطيفة ولجسمها منحنيات في الأماكن المضبوطة كما يفرض ذوق المكان. حين طلبنا طلبت مورينا من المالك اختيار النبيذ. وطبعا وصلت زجاجة ثمينة، النبيذ المعتاد "معاد تركيبه" من أحد علماء النبيذ الذائعي الصيت في هذه الفترة، وقيمته مرتفعة بلا داعي.

بعد فترة تعبت من معاينة ثدييها المعروضين من فتحة الصدر السخية. "وبعدين؟".

"عارفة أن الظابط اللي بعت له اسمك هو واحد من اللي بيدورروا عن معلومات عن السرقة".

جاءت لحظة اكتشاف إذا كانت مورينا نفسها تقول الحقيقة "في حاجة مش فاهمها" قلت بنغمة متأملة. "لو البوليس عاوز ينهي التمثيلية بسرعة ليه يضيف اسم محقق ممكن يكتشف حاجة؟".

"يمكن لأنهم عارفين أنك مش مهتم بالمخدرات وهدفك الرئيسى هو أنك تورط نفسك".

رفعت رأسى فجأة من فوق الطبق. هي حقا تعرف الاسم الصحيح. أمالت رأسها على جانب. "عشر آلاف من غير فصال" ردت بصوت عذب.

"ماشي"

رفعت كأسى. "يبقى نشرب في صحة الشغلانة".

"قوليلي هو مين".

"الفلوس معاك؟".

ضربت يدي فوق صدرى. "هنا".

"تعالي نعمل ده على طريقتي" أعلنت. "ناكل دلوقت وتيجى معايا البيت بعيد عن عيون الناس الحشريين ونعمل مبادلة".

"أنت مش متطمنة؟".

"الحكاية مش كدة. بس أنا عاوزة أسيطر" حين رأت تعبير وجهي المنزعج أضافت: "تعالي خليني أتسلي مرة".

كما يحدث دائما حين تكون متعجلا تأخرت الخدمة بشكل خاص. وقامت مورينا مرتين لتستنشق المخدرات في مخزن يقع في موضع استراتيجى بين أبواب الحمامات. كانت زوجة المالك تهتم بأمر تحضير الخطوط الجاهزة والسرنجات التي تستخدم مرة واحدة، حتى لو كان بعض العملاء يستخدمون تلك السرنجات الخاصة بهم، المصنوعة من الفضة. سحر اللاملموس.

نجحت أخيرا في دفع الحساب وجر مخبرتي خارج المحل، والتي أطلقت صيحة رعب ما أن رأت سيارتي السكودا فيليتشيا.

"ماشتريتش ليه عربية جديدة؟" سألت.

"عشان دي عاجباني" قطعت الكلام. "لو عايزة ممكن أندهلك تاكسى".

كانت مورينا تقطن بوسط البلد في مبني كبير كان يمكن أن يعتبر أنيقا

في الستينات، لكن الآن مجرد النظر له يبعث على الاشمئزاز. سحبت من الحقيبة ريموت الجاراج الموجود تحت الأرض. "هناك هنبقى في جو هادي".

أوقفت السيارة أمام الصندوق المرقم برقمها. وأنزلت مورينا سوستة الباركا (الجاكت)، وأدخلت يدها تحت الجاكت وأصابت ظرف النقود. وبعد أن داعبت صدرها أمسكت بذقني وقبلتني.

"أنت مستعجل جدا على معرفة الاسم ده" قالت بصوت لطيف.

بدأت أتعثر مع حزام البنطلون. "أنت مابتسمعنيش أبدا. المرة دي هاعملها بطريقتي".

استسلمت. و لم أكلف نفسي أي عناء. "هو مش أكتر وضع مريح في العالم" اقتصرت على هذا التعليق.

فتحت الباب وأخذت تفتش في حقيبتها على مفاتيح الصندوق. بعد بضع ثواني كنا نخوض معا في الظلام. حينما واجهتني ونشرت يديها على الحائط فاتحة مابين ساقيها، رفعت فستانها وربتت على مؤخرتها الصلبة. ثم انزلت سروالها حتى كاحليها.

"بسرعة يا تمساح" أثارتني. "عشانك أنت بس بخمسميت يورو".

أوقفت نفسي فانفجرت هي في الضحك. "أنا باهرج يا عبيط". قبضت على عضوى وأرشدته داخلها. "بالراحة" قالت. "عاوزة أحس بيه كويس".

كان بنيامينو وماكس ينتظران داخل شقتي بنفاد صبر. أعلمتهم فور خروجى من جراج مورينا بعد أن أقسمت لنفسي أنني لن أعلمهم بأمر هذا الجنس.

"دي أنجيليس" همست ما أن وطأت قدمي الصالة "أرنالدو دي أنجيليس".

"مش ده الظابط المتورط في قصة شهادة الزور؟" قال السمين بما يتفق مع كنيته [: ذاكرة] . "كانت إمتى في سنة 98؟".

"99" حددت.

كان هذا المفتش ادعى أنه تمت مهاجمته من قبل مسجل في جراج مهجور. وعن طريق دفعتين ولطمة كان من الممكن وضع المتهم في مكان وزمان مناسبين لتلفيق تهمة أخرى أكثر خطورة: تلقي بضائع مسروقة. وهي مزحة تساوى خمس سنوات كاملة في السجن. وبما أن هناك حاجة لشاهد، طلب مسئول شرطة الولاية من زميل آخر له أن يكذب. وكنت أنا مكلفا من قبل دفاع المسجل و لم يكن من الصعب على أن أكتشف أن هذا الآخر كان في هايبر مول يتسوق مع زوجته والأولاد.

لم أرد أن أحرك المياه الراكدة أكثر مما ينبغى، انتظرت دي أنجيليس في باره المفضل وعرضت عليه صورة الصديق الذي يدفع عربة المشتريات في قسم المثلجات، مستخرجة من كاميرات المراقبة التليفزيونية. قام الشرطي بسحب الاتهام وأطلق المحامي سراح عميله. ومن الواضح

أن دي أنجيليس كتم الأمر في قلبه وقرر أن يجعلني أدفع الثمن في أول فرصة، والتي أتت له بعد خمس سنوات. الصبر والمثابرة. مواهب الحرس القديم. كان قد أحيل على المعاش منذ عام، كما قالت مورينا، التي زودتني بعنوانه أيضا.

بناية في غمار خضرة إحدي الحدائق في الضواحى. عشر دقائق بالدراجة من وسط البلد. لكن المفتش السابق يفضل المشي، بل الجرى. في الصباح التالي، رغم البرد القارص شاهدناه يخرج في الساعة الثامنة بالضبط وهو يركل في الحارات المحاطة بالأشجار مرتديا بدلة رياضية بعلامة تجارية مميزة. ثلاثين دقيقة بالضبط هرولة ثم وقفة أمام كشك السجائر والبار. قررنا أن نقوم بمواجهته وحده فور أن يخرج.

تجسدت بجواره. تعرف علي فورا لكنه واصل المشي. "عمارة أنيقة، دور عالي، خدمة حراسة بوابة" هاجمت بمرح. "أكيد أنت عايش طفرة بالمعاش اللي بياخده مفتش".

بدا أكثر شبابا. كان ذو لياقة كما كان رجلا وسيما. طويل القامة بوجه ملامحه متسقة وشعر بني كثيف. ربما لم يكن هذا لون شعره الأصلي لكن كان لديه ذوق جيد جعله لا يستخدم لون شعر الكلاب الدوبرمان الذي أصبح موضة شائعة لدي رجال الشرطة الإيطاليين.

تلفت حوله بحذر "عاوز إيه يا بوراتي؟".

"في ليلة من الليالي ابتزيت شخص غريب كان بيسأل اسئلة بخصوص سرقة المخدرات اللي حصلت في معهد الطب الشرعي".

أطال من خطوته "سيبني ف حالي".

سبقته وسددت عليه الطريق. "واديتله أسمي" واصلت. "جه لمحلي ولما قلت له إني مابشتغلش عنده بدأ يمثل القسوة عشان انت نصحته بكدة، صح؟".

فتح ذراعيه. "اتسليت شوية، فإيه بقى؟" انفجر. "خليت شكلي بيضان وقصاد ده أنا عملت فيك المقلب ده، ودلوقتي بعد سنتين جاى تبضنني؟".

"أنا بس عاوز أعرف مين الشخص ده؟"

"ماعرفوش".

"بيضان. وإلا ماكنتش هتاخد راحتك كدة في التعامل معاه".

حاول التهديد. "ولسة ممكن أعمل لك بلاوي كتير".

"وأنا كمان" رددت. "وعلى العكس ممكن تخلص مني للأبد وف دقيقتين".

نفخ. "أنت ماتعرفش أنت باضنني قد إيه يا بيوراتي".

"وأنت كمان مش حب حياتي".

"هو سويسرى" بدأ في الحكي. "بيشتغل لحسابه، بس في تقرير بيقول أنه كان جاسوس للبوليس الصربي".

جاسوس آخر. "وإيه دخل الصرب في السرقة؟"

"أنت بتسأل كتير وأنا ماعنديش أي فكرة" غمغم وهو يواصل خطواته باتجاه بيته.

"وما حسيتش بفضول عشان تكتشفه؟".

"لا. وكمان ماكنتش هاقدر بسبب سوء العلاقات مع الناس دول".

الصرب. أشرار يوغسلافيا السابقة. أما الباقون فعلى العكس كانوا بطعم السكر. "الاسم". صرخت تقريبا "اسمه إيه؟".

لم يتذكره دي انجيليس، لكنه اقترح أن أفتش في سجلات فندق معين.

"دور على اتنين".

"ماكانش لوحده؟".

"لأ. كانت معاه واحدة ست. مزة عبيطة".

انتظرنا للمساء، فحراس هذه النوبتجية أكثر مرونة والصالات المهجورة ستساعد على الاستمرار في المحاولات. كانت ساعات صعبة. جعلن أصدقائي أكرر الحوار مع المفتش لأكثر من مرة، مدققين في كل كلمة. فتورط بوليس بلجراد في الأمر لا يبشر بأي خير ويعقد المسالة بشكل كبير.

في الثانية مساءً رن جرس الفندق. فتح لي مغربي في الخامسة والثلاثين

من عمره. لم يسرني أنني قمت بإيقاظه.

"ماعندناش أوض فاضية" شرح. "آسف".

"أنا مش عاوز أوضة" وضحت. "عاوز أكلمك كلمتين".

أومأ مستسلما. "الكل عاوزين يكلموني ودايما بالليل" تذمر. "البوليس عاوزين معلومات معينة عن العملا والشراميط عاوزين يدخلوا عملا معاهم من غير تسجيل، وتجار مخدرات عاوزين يعملوا خدمة توصيل البضاعة للأود.. وأنت بقى عاوز إيه؟".

"تفتيش سجل قديم".

"وهتدفع كام؟".

سحبت ورقة بنكنوت بقيمة مائتي يورو.

تنهد. "أنا باكسب سبعميت يورو في الشهر".

"يبقى دي هتريحك".

"أكيد" قال وهو يأخذ النقود. "ادخل هاوسعلك الطريق".

بعدها بنصف ساعة خرجت مصافحا البواب. تجمدت من برودة هذه الليلة في نوفمبر. أشعلت سيجارة وأضاءت الأنوار الأمامية لسيارة بنيامين التي كانت تتحرك مبتعدة عن الرصيف لكنها تتقدم ببطء.

"هو اسمه بيير الان. والسيدة جريتا جاردنر" أعلنتت مادا يدي لماكس بالصور الضوئية للجوازات.

"اسماء ريحتها فايحة من على بعد ميل أنها مزيفة" صرح السمين. "إزاى واحدة يبقى اسمها جريتا جاردنر؟".

كان رأي زميلي سليم. فالوثائق مزيفة. مرة أخرى مجهود يذهب سدي. نقود خاسرة، زمن ثمين ضائع لا يعوض، سيلفى تبتعد أكثر. بعد ثمانية وأربعين ساعة أخرى حاولنا فيها العثور على أي أثر أصبحنا مجبرين على الاستسلام لليأس. كان قد مر منذ اختطافها واحد وعشرون يوما بالضبط.

"ودلوقت أعمل إيه؟" سأل روسيني نفسه بصوت مرتفع. "أرجع لبيتي وأقول لنفسي" "بكرة هايكون أحسن م النهاردة" "أو أي خرا من النوع ده".

بقيت أنا وماكس صامتين. في هذه اللحظة لم تكن هناك كلمة لها معني يمكن أن تقال. خرج بنيامينو بلا سلام. نهض السمين وصب جرعة كبيرة من النبيذ.

"كحول هو ده بس اللي احنا محتاجينه دلوقت".

قبضت على زجاجة نبيذ كالفادوس رغم أنها لم تكن الساعة المناسبة لبدأ الشرب. وجرعت الكأس الأول في جرعة واحدة. كنت متعجلا سكرى.

مع الكأس الثالث انهرت على الأريكة ووجهت الريموت نحو جهاز الهاى فاى. ضغطت على زر التشغيل ورفعت الصوت على أعلى درجة.

اندفع صوت جيمي ويذرسبون يهاجم بأغنية 'Money's getting cheaper (الفلوس بترخص).

(مش عارف أعيش

بس لازم أحاول

من ساعة مالحانوتية عملوا نقابة

حتى الموت بقى غالي)

كانت الليلة الثلاثين والهاتف لا يتوقف عن الرنين. فتحت عيني وحللت الموقف على نار هادئة: ممدد على الأريكة، التليفزيون مفتوح، وممثلة إغراء من السبعينات تثني على مزايا القدرت الاستثنائية لتميمة ما. أمسكت التليفون وفتشت الشاشة. كان هناك رقم معروض. انتفضت واقفا حين قرأت الاسم.

"سيلفي!" صحت ناهضا.

كان الصوت أنثويا لكنني لم اسمعه أبدا من قبل. بارد كمياه الجدول. لكنة ألمانية مميزة. أكثر مما يتيح لها أن تحوز أي مصداقية. "لازم تعمل شغل أتدفع لك علشان تعمله".

"جريتا جاردنر" خمنت.

"بالظبط. مافيش داعى بقى للدخول في التفاصيل".

"كلميني عن سيلفي".

"هتلاقى ظرف في صندوق البريد" أعلنت قبل أن تغلق الخط.

أسرعت من فورى نحو السلم. ظرف أصفر متوسط الحجم، تسليم يد. يحتوى على صورة لراقصة في بدلة عرض. كان الوجه مزينا بالمساحيق لكن العينان اللتان كانتا تركزان على شيء ما وقت اللقطة ترويان قصة سجن وغضب وألم. نظرت للساعة والتاريخ الأحمر البارز في أسفل الصورة يسارا. كانت سيلفى حية.

جرى مرة أخرى على السلالم. عاصفة من اللطمات على باب ماكس واتصال ببنيامينو. أجاب من الرنة الثانية. ليلة أخرى من الأرق.

"اجرى" لهثت.

وصل السمين. لاحظ الصور. "هاروح أحضر قهوة" قال بصوت منكسر وأغلق على نفسه المطبخ كي يبكي في سلام. كحول وأدرينالين أكثر مما يمكنني من أن أفعل مثل السمين. فتحت العلبة التي حفظت بها صورة جواز جاردنر. وصفها المفتش السابق دي انجيليس كحسناء بلهاء. لو كان يقول الصدق فالصورة ظالمة لها. فقد بدت كشقراء شاحبة ومسالمة.

حتى تلك اللحظة كنت مقتنعا أن الستيني بيير ألين جلبها خلفه للتغطية. لكن على العكس من ذلك كانت هي القائد. فهمت ذلك حين سمعت صوتها. صحيح أنني لا أفقه في النساء شيئا.

قبّل روسيني العجوز الصورة، ثم احتضنها بقوة. ومر بيده على وجهه المبلل بالدموع. "سيلفى حبيبتي".

قهوة. بعد ساعة مليئة بالضربات على المائدة، وتبادل مستمرلعبارة "أحا دي عايشة، أحا".

ثم بعدها "لازم نحررها لازم نلاقى الخولات اللي ارتكبوا السرقة دي وبعدين نتصرف لكن واحنا واخدين بالنا أنهم ماينيكوناش واضح أن القحبة دي عندها خطة في دماغها".

بتنحية العاصفة العاطفية جانبا استطعنا خطوة خطوة أن نحلل الوضع على نار هادئة. كانت سيلـڤى أسيرة زميلة –ومن يدرى ربما أيضا حبيبة– الشخص ذو الخاتم، التي لم تكن راضية اطلاقا على وفاته قبل الأوان فخططت انتقام شيطاني ومعقد.

فخطفت [سيلـڤى] واجبرتنا على الدوران في الفراغ لمدة شهر محتفظة بصمتها التام. ثم بعثت بطلب محدد: اكتشاف المسئولين عن سرقة المخدرات من معهد الطب الشرعي. كان قد مر عامان، لماذا كانت هذه القصة بالذات مهمة هكذا؟ ومع ذلك لم يبد أمامنا خيار أخر إلا القبول.

وحتى لو لم تصرح بذلك فمصير سيلـڤى مرتبط بهذا التحقيق. بالطبع لم نكن حمقى لدرجة أن نتخيل أنه بصفقة واحدة يمكننا أن نستنتج كل شيء. في مخططهم يجب أن تظل امرأة روسيني حية حتى نحل القضية. بعدها سيتم القضاء عليها. وربما نحن أيضا. التقطت الصورة بيدي وتفرستها ربما للمرة الألف. كان يمكنهم أن يرسلوا أي صورة لسيلـڤى، ورغم ذلك أجبروها على ارتداء بذلة والتزين والرقص. لقد أثبتت هذه المرأة أنها معقدة ومنحرفة، ومنتبهة للتفاصيل بوحشية.

"جريتا جاردنرليها وسايلها ومعاها فلوس وأكيد في في ضهرها منظمة سانداها" حللت بصوت مرتفع. "ولما عرفت أن الراجل أبو خاتم مات رجعت لقواعدها وخططت بهدوء وبرود خطة حلوة عشان تنيكنا".

"ما هو ده اللي احنا وصلناله يا ماركو أديلنا ساعة بنتكلم في كدة" رد ماركو مرتبكا.

"المشكلة أنها سابقانا بكتير ولودخلنا في لعبتها يبقى لازم هنخسر".

"طب وأنت عاوز تعمل إيه؟".

"يجب علينا أن نتفاعل بأسلوبنا".

"اللي هوّ إيه؟".

"نتقسم" أجبت. "أنا أدور ع اللي سرقوا وانتوا تدوروا على سيلفى. وجريتا. واحدة تصيب وواحدة تخيب. من غير كدة مش هانفلت"

"القوالة أسهل من الفعل" اعترض السمين. "جيشك بحاله هو اللي متجمع عالترابيزة دي".

"معانا الصور ولازم ندور على أي حد يكون عرفهم."

"بلجراد" أضاف بنيامينو.

"فكرة ممتازة" وافقت. "أنا أعرف ناس في ليلة التهريب دي لو كانوا اشتغلوا مرشدين في أي وقت ممكن أي عسكرى فسدان يفتكرهم".

صب ماكس القهوة التي صارت باردة، وضع سكر وقلب طويلا

بتمعن. "هي خطة معقولة بس هاتعملها لوحدك؟".

"آه بافكر في كدة، حتى لو كنت حاسس إني مش هانجح في اكتشاف أي حاجة. ولو عايز أجيبهالك على بلاطة، أنا مقتنع أن ست جريتا ولا يهمها موضوع السرقة ده ببصلة. هي بس عاوزة تشوفنا بنلف زيالتيران في الساقية".

استدار المهرب العجوز نحو ماكس. "وقت تحضير الشنط وصرف فلوس تاني، هارجع اخدكم".

هزت مورينا رأسها حين رأتني. اعتذرت للمتأنق الذي كانت تزقزق معه وجاءت لتقابلني.

"أوعى تقول إني خليت أفكار غريبة تيجي في دماغك، صح؟" سألت بصوت منخفض للغاية. "دي كانت ليلة للاحتفال بالعرض مش أكتر".

"حتى لو كنت مستعد أدفع الخمسميت يورو؟".

بإشارة من رأسها أشارت نحو الرجل الذي كانت تتحدث معه. "هيدفع نفس المبلغ بس عارض معاملة أحسن. وكمان هو لطيف، عالأقل في بيني وبينه مواضيع مشتركة".

"ماعنديش شك. بس أنا هنا في شغل".

"نفس القصة الي اتكلمنا فيها قبل كدة؟".

"آه".

"يقى تنسى مش عاوزة أورط نفسي ف مصايب".

"عالأقل أسمعيني هاتكسبي الضعف".

"هو كان بيعزم علي أقضي الويك إند في منتجع في توسكانا الفلوس لوحدها مش كفاية عشان تخليك تخش المكان ده. وانت بالعكس بلاوي وبس".

"وصليني بالضابط الحلو بتاعك".

"مافتكرش ينفع".

دارت على عقبيها وعادت للرجل. طلبت سبريتز، وراقبت العاهرة وهي تعمل. في الواقع لم يبد فارسها الجديد مغفلا. إطلاقا. كان يعرف من معه جيدا وماذا يفعل. و لم يكن حتى خاسرا لا يجد شيئا أفضل من عاهرة ليتسلي به في الإجازة. "واحد من اللي بتعجبهم الشراميط الخطرة" فكرت متذكرا كلمات روسيني.

إلا أن ذلك لم يكن صحيحا في نهاية الأمر. لأنه إذا كان من جانب ما لا أستطيع مقاومة مغازلة هذا النوع من النساء رغم معرفتي أنهم يورطنني كل مرة في مشاكل، فمن ناحية أخرى كان نموذجى المثالي مختلف تماما: ڤيرنا.

ومع ذلك هجرتني و لم أفعل أي شيء لأمنع ذلك. وضعت في فمي حفنة من الفول السوداني. كانت لدي رغبة شديدة في رؤيتها ثانية، لكنني كنت أيضا خائفا من أن تعاود صدي بواحدة من مناقشاتها تلك التي تمثل

كل كلمة فيها جَلدة. لا، لم أكن لأبحث عنها. كنت في هذه الفترة أكثر هشاشة من أن أتحمل إهانات.

ارتدت مورينا والرجل معطفيهما واتجها لباب الخروج. ورمقني حين مر بجواري بنظرة متغطرسة تظاهرت بعدم رؤيتها.

استيقظت مبكرا في اليوم التالي لأعترض دي انجيليس خلال جولته الصباحية. لم يكن في متناولي سوى ذلك، لكن فكرة قضاء العطلة الأسبوعية في كسل تام بينما يتخبط أصدقائي في بلجراد بدت لي فكرة مرفوضة.

انتظرت المفتش السابق في البار. نظر لي بتجهم. في تلك الأيام لم يُبدِ أي أحد ولو بعض اللطف في مواجهتي. حييته بصوت مرتفع بأسماء وألقاب كثيرة.

اقترب بشكل عدائي. "دلوقتي هاتصل باتنين من زمايلي واحقق امنيتك أنك تتبضن".

كان دائما لديه هوس بالتهديد، لذا كنت مجبرا على تذكيره أن ابتزاز الأجانب في الفنادق لم يكن لطيفا أو حتى مشروع.

ضحك ضحكة مكتومة. "هما برة اللعبة ومايهمهمش أي حاجة من أي حد".

"بس الفلوس انت استثمرتها لهم في حتة وأي قاضى مش مديون لك بحاجة هايلاقيها أكيد".

سددت ضربة في في المكان الصحيح. "عاوز إيه؟". سأل.

"نتكلم عن أيام زمان".

"عن موضوع السرقة دي ماعرفش أي حاجة".

"أنا مهتم بالبضاعة كمان".

أشرت للخزينة. "ادفع الحساب هاستناك برة".

لم يستوعب أحد جيدا لماذا تراكمت كمية كبيرة هكذا من المخدرات عام 2004 في مخازن قسم السموم: إدارة سيئة للغاية أو اختيار تم خصيصا لتسهيل اختفاءها؟ الشيء الوحيد المؤكد أن أحد اللذين على اطلاع على الأمور استغل هذا ليأخذ كل شيء.

لكن هذا ما كنت أعلمه بالفعل.

تجاهلت مع ذلك أن هناك أشاعة تدور في القسم أنه ولا حتى جرام واحد من الخمسين كيلو سابقة الذكر عاد ليروج في إيطاليا. ففي قسم المخدرات كانوا مقتنعين أن المخدرات نقلت عبر الحدود حتى قبل اكتشاف السرقة.

قصصت عليه قصة زيارة الشرطيين للوجار. اعتبره المفتش السابق أمر غريب. تشكك في كون الأمر يتعلق بعمليات الأقسام عادية. كانت قناعته الصادقة أنها عملية تدار من فوق لخدمة أشخاص وليس مناصب.

"اخلع بقى. سيبني استمتع بمعاشي في سلام".

بينما كنت عائدا للمنزل تلقيت هاتفا من ماكس. لا جديد. كانوا يدعون نصف بلجراد على شراب ليعثروا على صلة بالبوليس.

السبت مساء في الوجار. كوارتيت من موسيقى الجاز ولا أسوأ، لكنني كنت استمع له. سألتني سيدة عن ماكس. لطيفة وليست اجتماعية بالمرة. لابد أنها هي التي أراد السمين دعوتها على العشاء ليلة خطف سيلقى. اخترعت قصة مهذبة عن عمة تحتاج للمساعدة.

لم تنطلي عليها. وابتسمت لي ابتسامة ساخرة.

"مابيعرفش يستخدم التليفون؟".

"بصراحة أنا مش شاطر قوي في الكدب". اعترفت.

"وكمان دي قديمة قوى".

"مافيش ستات تانية في الموضوع" وضحت. "يمكن يقولك في فرصة تانية".

"ياريت بسرعة. أنا العروض مغرقاني".

لم تنجح في أن تظل جادة وانفجرت في ضحكة جميلة.

"ماركو" قدمت نفسي مادا يدي.

"تيريزا".

عرضت عليها الشرب والبقاء لتجاذب أطراف الحديث قليلا قبل الإغلاق.

يوم الأحد نهضت وذهبت لشراء الصحف وقمت بجولة طويلة في وسط البلد. كانت ممتلئة بالناس الداخلين والخارجين من المحلات. لم تكن أعياد الميلاد بعيدة. توقفت في ميدان دوومو من أجل شراب فاتح للشهية. واشتريت كيسا من الكستناء المشوي ثم عدت للمنزل لأنام.

أيقظني السمين في منتصف النهار. "احتمال نكون وصلنا" وضح بنشوة. "هانرجع بكرة".

"ممكن تقول اكتر؟".

"عندنا دعوة عالعشا".

يوم الأربعاء التالي كنا جالسين على مائدة في مطعم معروف في ميرا، بالقرب من مدينة البندقية. كنا ستة أشخاص. نحن الثلاثة، أحد أعضاء عصابات صربيا وحراسه الشخصيين. كان الصربي يدعى بافل ستويكوفيتش Pavle Stojković وكان المسئول عن الشمال الشرقي الإيطالي لأحد المنظمات القليلة التي لم تندمج في مافيا بلجراد. كمعظم مجرمي أوروبا الشرقية كان مسئولا أمنيا حتى حل النظام. ثم اتخذ زمام المبادرة.

رجل متعلم، تخطى الخامسة والخمسين، له أسلوب يوحى بالثقة، في ملابس وقورة، قبل مقابلتنا بناء على توصية من مهرب ذائع الصيت عمل كثيرا مع بنيامينو. في انتظار المقبلات أخذ يتحدث عن الموسيقى الكلاسيكية مشركا إيانا في هوسه الموسيقى. وليجعلنا نفهم أنه فيما يخص موسيقى الجاز والبلوز يعلم المعلومات الجارية اللازمة سألني عن أخبار

بعض الموسيقيين المعروضين في الوجار.

"كنت حضرت حفلة لماوريتسيو كاماردي في بلجراد" حكي. "كنت مع بنتي".

فترة انتظار حتى يغرس شوكته في الأرز ليوضح لنا أنه على استعداد لسماعنا. فتح ماكس حقيبته الجلدية وأخرج حافظة بها صور جوازات بيير ألان وجريتا جاردنر المزعومين، ثم صورة ومعلومات عن سيلـڤي. ومررهم للحارس الجالس بجواره، الذي بدوره سلمها للزعيم. فرجال العصابات يروق لهم احترام الرتب.

"الراجل مات. شكله كان مرشد للبوليس الصربي" شرحت. "الست خطفت خطيبة روسيني وطالبة مقابل أنها تسيبها معلومات عن المسئولين عن سرقة المخدرات اللي حصلت في معهد الطب الشرعي في بادوا سنة 2004"

"وانتوا طالبين إيه من "الجماعة" اللي بامثلهم؟".

"أقصى مساندة ممكنة".

أراد أن يتأكد أنه فهم جيدا "اللي هي إيه؟".

"معلومات. كل اللي ممكن يكون مفيد بالنسبة لناعشان ننهي القصة بشكل كويس".

"إنقاذ الست بتاعتي" وضح روسيني بدقة.

"ده جميل كبير لازم يترد.. بالفوايد، زيما أنتوا يا طلاينة بتقولوا".

"احنا جاهزين".

أومأ ستويكوفيتش. وحدق في عيون بنيامينو. "عندك قارب جميل" جامله.

"مافيش مركب يوصل لدرجة أن سرعته تكون أعلى منه".

"رحلة عشان المعلومات عن السرقة" عرض. "واتنين عشان أي أخبار عن جاردنر أو الست بتاعتك اللي هنحاول نجيبهالك في ظرف أسبوع".

"ماشي. إيه نوع البضاعة اللي هانقلها؟".

"ده سؤال من اللي ماباجاوبش عليهم. في مشاكل؟".

هز المهرب القديم رأسه وابتسم رجل العصابات الصربي برضا. "احنا مش مجهزين للنقل في البحر. يمكن في المستقبل تلاقيه اقتصاديا مناسب لك أنك تشتغل عندنا".

أخذ روسيني وقت. "واحدة واحدة".

أعاد الحارس الشخصي ملأ كأس بافل ستويكوفيتش بنبيذ سوفينيون فرويلانو. وبينما كان الصربي يرشفه بتلذذ بدأ يحكي حكايته. جزء كبير من الهيروين المختفي بشكل غامض من قسم السموم يخص المافيا الكوسوفية. فثلثى الهيروين الذي يتم ترويجه في أوروبا يأتى من افغانستان، ويتم نقله عبر كوسوفو، حيث يُكرَرليتم توزيعه في بلدان مختلفة. ومنذ عام 1997 سيطر الكوسوفيون على السوق في سويسرا والنمسا وبلجيكا وألمانيا

وهنجاريا والنرويج وجمهوريا التشيك والسويد. أما في إيطاليا فكان لهم منافسين: الأتراك والصرب، لكنهما يواجهان مشاكل لوجيستية جمة وعدم وجود أي "تسهيل" لمهامهم من قبل المخابرات التي في المقابل تغمض عينيها حين يتعلق الأمر بالكوسوفيين.

"عاوز تقول إن المخابرات الايطالية هي اللي نظمت السرقة؟".

"أه".

"لكن ليه؟".

"كوسوفو بتتقدم بنجاح تجاه اعلان الاستقلال. لكن (جيش تحرير كوسوفو) مش بس جيش محاربين عشان الحرية، هو كمان الجناح المسلح من المافيا الكوسوفية، وجنوده هما هيكل المنظمة الإجرامية نفسه".

"دي وجهة نظر الصرب" اعترضت، مقاطعا له.

وضع الشوكة والسكين على طبقه، عقد أصابع يديه، وأراح ذقنه عليها "بشكل شخصى أنا مقتنع أن كوسوفو تخص شعبي، بس احنا هنا بنتكلم في شغل: معلومات مقابل خدمة، وأنا راجل ملتزم بكلمتي. وكلامي ماهوش رغى في بار، فهمتني، سنيور بوراتي؟".

"تمام. سامحني".

رشفة أخرى من النبيذ، وواصل سرد خلفيات السرقة تاركا سمكته المشوية تبرد. كان هدف المافيا الكوسوفية هو تأسيس دولة مخدرات في قلب أوروبا، ولينجح ذلك كان من الضرورى أن يبدو الأمر في عيون

الرأي العام العالمي لا يعدو كونه صراع تحرر من هيمنة بلجراد تخوضه الأغلبية الألبانية. وكانت المافيا الكولومبية قد عقدت بالفعل اتفاقيات من أجل استخدام الأرض كنقطة وصول للكوكايين، وسيقوم الكوسوفيون بعدها بتوزيعه عبر القنوات المناسبة. وكانت الولايات المتحدة ستدع ذلك يتم مقابل جمائل ضخمة، من ضمنها انشاء أكبر وأغلي قاعدة عسكرية منذ أيام فيتنام، معسكر بوندستيل، بتعاقد البنتاجون من الباطن كالعادة مع شركة هاليبرتون بمباركة المدير التنفيذى السابق ديك تشيني. والمعسكر يقع في موقع استراتيجى على خط أنابيب بترول عبر- البلقان، والذي من المتوقع أن ينقل النفط من بحر قزوين للبحر الأدرياتيكي، ويأوى سبعة آلاف شخص في أكثر من ثلاثمائة مبني موزعة على مساحة أربعمائة هكتار.

ظل ستويكوفيتش يتفوه بالمزيد والمزيد من المعلومات، لكنه لم يكشف شيئا ذا بال بخصوص السرقة. ووصل للمراد حين بدأ يتحدث عن شرح المصالح العقارية على المحك في طرد الأقلية الصربية من كوسوفو.

"في حاجة لازم تعرفوها إن تركيبة المافيا الكوسوفية تشبه جدا تركيبة الندرانجيتا الإيطالية*، مافيش قيادة في القمة لأن المنظمة بتنمو أفقيا من خلال الأسر بقرابة الدم. عشان كدة مافيش تائبين*. لأنه مستحيل تتهم أبوك واخواتك. لكن عادة بيكون في صراع بين الأسر وبعضها. في سنة 2004 اتملي سجن بادوا بأعضاء أحد الثلاث عشائر الكبيرة المسيطرة على جيش تحرير كوسوفو. ومن ضمنهم فاتيون Fatijon Bytyçi

بيتتشي الابن الكبيرلواحد من زعماء البيخا اللي اتمسك مع خطيبته بعد مابلغت عنه البوليس عيلة منافسة. وعشان يتم تجنب حرب عصابات أهلية والمخاطرة بفضيحة على المستوى الدولي اتعمل اجتماع قمة بهدف عقد اتفاقية، وبالمناسبة دي اتطلب من المخابرات الإيطالية أنها تلاقى طريقة تطلق بيها سراح الكوسوفيين وبسرعة".

"لا مخدرات، الجميع أبرياء" تهجى ماكس ذاكرة، ساردا عنوان مانشيت إحدي الصحف في ذلك الوقت.

"يعني بشكل أو بآخر. في شوية فاصلوا في عقوبات أخف...".

"بس مش ابن الزعيم وخطيبته اللي اتبعتوا لبلدهم؟"

"بالظبط".

"والمخدرات اللي اتسرقت في إيطاليا راحت فين؟".

رفع كتفيه" المخابرات بتعرف دايما ازاى تستخدمها كويس".

خيم علينا الصمت لباقى العشاء. ستويكوفيتش ترك الحلوى واعتذر عن تناول القهوة بصحبتنا متعللا بعدم وجود وقت لديه وخرج من المحل يتبعه حارسيه.

"هاتهبب إيه جريتا جاردنر بالمعلومات دي؟" قال السمين بغضب. "بعد السرقة على طول كان ممكن يكون ليها فايدة، لكن دلوقت؟".

أدرت فنجالي بين يدي. "قلت لك من الأول: هي مش هاتعمل بيها

حاجة، هي بس عاوزة تخلينا نلف حوالين روحنا زيالعبط".

ثم استدرت ناحية بنيامينو "أنت عارف أنهم هيملولك القارب هيروين؟".

"أنا مستعد أعمل أي حاجة عشان أرجع سيلفى للبيت".

هناك حالات لا تترك لك فيها الحياة خيارات وتجبرك على خيانة مبادئك، وهذا ما حدث لروسيني تلك المرة، و لم أكن أتوقع أنني سأحضر مثل هذا المشهد أبدا.

لمس ذراعي. "في مشاكل يا ماركو؟".

"كتير، أكتر من اللازم" أجبت. "بس مهما كان اللي هاتعمله هافضل صاحبك".

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة حضر رجل من طرف ستويكوفيتش لمنزل بنيامينو. كانَ على القارب أن يقلع بعد ساعة. لم تكن الأحوال الجوية مناسبة تماما للقيام برحلة بحرية، لكن البضاعة كان يجب أن تصل كرواتيا صباح اليوم التالي حتى يتسنى إعادة توجيهها مباشرة.

وبينما كان روسيني يصارع الأمواج، فتحت جريتا جاردنر محمول سيلفي وهاتفتني.

"خلصتم الشغلانة؟".

"أيوه".

"يبقى دفعتم أول دين".

"خلاص سيبي سيلڤي".

"هي تمن الدين التاني" أوضحت. "ده اللي مالوش تمن".

"ليه تقتليها هي؟ حاسبينا أحنا".

"ما هو ده اللي باعمله. لازم تعيشوا وأنتوا عارفين أنها بترقص عشان ترضي رغبة رجالة كتير لمدة كبيرة. وبعدين هاتموت".

"ماينفعش نوصل لاتفاق؟".

ضحكت جريتا جاردنر بتلذذ. "في صندوق البريد بتاعك هاتلاقى ظرف تاني. الأخير".

"مش مهتمة تعرفي اللي اكتشفناه؟".

"أنا أصلا عارفة كل الأجابات. كان في بس مسألة مبدأ".

أغلقت الخط. لكنني هذه المرة لم أسرع نحو السلم، شعرت بحيرة كملاكم على وشك إنهاء مستقبله المهني. كلمات جريتا أصابتني بالشلل. في الصورة كانت سيلڤى عارية ومعها رجلين عاريين كذلك.

"بنيامينو مش هايشوفها تاني أبدا" قلت لماكس بعدها ببضع بدقائق.

"من حقه يعرف".

"أكيد دي هاتكون أخر صورة توصلنا لسيلڤى. عاوزه يفتكرها كدة؟".

لم يجب السمين، قطعت الصورة.

"اللي أنت عملته ده يا ماركو بيضان" أغاظني. ثم أضاف: "بس أنا مبسوط أنك عملته".

"كحول؟".

"لأ، شكرا. أنا أحزن من أني أشرب".

"تفتكر الصرب هاينجحوا في اكتشاف حاجة؟".

"باتمني ده من كل قلبي. ده كمان في مصلحتهم. هايحتاجو بنيامينو والقارب بتاعه".

اتصل بي روسيني العجوز في منتصف نهار اليوم التالي ليخبرني أن رياح بورا تدفع أمواج عالية تصل لارتفاع مبني، وأنه سيبتعد عنها بقاربه في خليج صغير حتى يتحسن الجو.

راق لي الأمر. كنت أحتاج وقتا لأتماسك. فبنيامينو يعرفني تماما ولا أريد المخاطرة بإثارة شكوكه. سيصر على معرفة ماذا حدث وسأخبره آجلا أو عاجلا.

دق المحمول ثانية. كانت مورينا. لم أكن أرغب في التحدث معها و لم أرد. استسلمت في المرة الرابعة.

"عاوزة إيه؟".

"أعزمك عالشرب".

"آخر مرة ماكنتيش لطيفة خالص".

"عاوزني أعتذر؟ ولا تحب أقولك إني عرفت حاجة ممكن تهمك؟".

"عن الحدوتة إياها القديمة؟".

"بالظبط".

"خلاص ماعادتش تهمني".

"ماظنش".

"لأ بالعكس. وبعدين مش أنتي اللي كنتي مش عاوزة تعرفي حاجة؟".

"جات لي ضربة حظ".

"مبروك عليكي مع أني أشك أنك ممكن تلاقى حد مهتم يشترى".

أدركت أخيرا. كنت على وشك إغلاق الخط حين قالت: "خلينا نمشيها كدة. أنا أقولك اللي أنا عرفته ولو أنت لقيت فيه حاجة تهمك تهز جيبك".

"أنا اللي أحدد المبلغ".

"أنا واثقة في طيبة قلبك وأمانتك" قالت مازحة.

أداء جيد لمورينا. استطاعت أن تجرني للمرة الثانية. كل نواياى لعدم رؤيتها ثانية أبدا تبخرت مع أول مكالمة.

كانت تمطر، وكانت المواصلات أكثر ازدحاما من المعتاد وأصبح

العثور على مكان للركن في بادوا مهمة تتزايد صعوبتها مع الوقت. وصلت متأخرا. كان وقت المقبلات قد انتهي وأصبحت الموائد معدة للوجبات السريعة. الأطباق الأساسية المجمدة والتي يتم إعادة تسخينها في الميكروويف و"أطباق السلاطة الكبيرة" الأسطورية.

كانت مورينا تجلس معطية ظهرها لي. وبما أنها من الزبائن المعتادين للمحل كان يمكنها أن تواصل ارتشاف نبيذها السبريتز. جلست أمامها مباشرة ولاحظت فورا نظارات الشمس الكبيرة للغاية. رفعتها بخفة. كانت الكدمة تحت عينها اليسرى تدنو من اللون الأصفر، وهي دلالة على أنها في طريقها للشفاء. قمت ببعض الحسابات.

"ده الراجل اللي رحتى معاه المنتجع الوهمي في توسكانا مش كدة؟".

"واحد من أصحابه. والمنتجع كان فيلا صغير معفنة. أنا كنت الوحيدة اللي مانبسطتش".

"إحباط كبير".

"مخاطر المهنة" أجابت بصوت متهدج. "ده اللي قالهولي الظابط الحلو بتاعى".

"اللي مش هايحرك صباع عشان يساعدك".

"مافتكرش خالص".

تنهدت. "عاوزأني أقولك اللي أنا بافكر فيه؟".

"أنا عارفاه أصلا: السنين بتمر وكل ما أكبر كل ما الرجالة هيستغلوني أكتر".

مر ببالي ما تمر به سيلفي: واختفت فجأة بداخلي الرغبة في إلقاء دروس عن الحياة.

طلبت ساندويتشين وكأس نبيذ أحمر مفكرا أن مورينا على الأقل كانت حرة لتقرر.

"كنت دايما عاوزة أمشي أمورى لوحدي، بس متهيألي جه الوقت عشان أخش في واحدة من الوكالات المرفهة لخدمات المرافقة". "ثم تنهدت" أنا خسرت فرصتي لما ماعرفتش اتجوز "الشخص المناسب". كان ساعتها زماني متدلعة ومتهنية ومتصانة".

قمت بتغيير الموضوع "طب إيه بقى الأخبار؟".

"كانت عصابة من البوليس هما اللي سرقوا المخدرات".

"بيضان".

"لأ فعلا دي الحقيقة هما بيشتغلوا في فريولي وليهم زميل جوة. الظابط الحلو بتاعى واحد من الفريق اللي بيتابع تليفوناتهم."

"وهو قالك كدة؟".

"أيوة".

فكرت "عشان تقولي لي". لكن لو كان يريد إبعادي لماذا يخترع قصة

عن ضباط فاسدين متورطين؟.

"خبوا البضاعة ست شهور ودلوقتي بيسلموها كيلو في الأسبوع لعصابة بتوزعها لصالحهم".

"محفظتي في جيبي. مايهمنيش الكلام ده"

"تبا لك؟؟؟؟" غمغمت بإحباط.

"هاتيلي اسم الراجل ده وتليفونه المحمول".

"ليه انت بقيت المنتقم للشراميط اللي بتتعامل وحش؟".

"آه، بس أنا مش باعمل ده عشانك" فكرت أن هذا من أجل سيلفي. لم استطع محو تلك الصورة اللعينة من ذهني "هاتديهم لي ولا لأ؟".

مدت يدها في كيس نقودها وأخرجت لي بطاقة عمل. "مابقيتش محتاجة لها خلاص".

لم يتخطى طول روكو بونتزانو المتر وسبعين إلا أنه كان بلطجي بالسليقة. وفي سن الرابعة عشر قام والده بحبسه في جيم للملاكمة لإبعاده عن رفاق السوء في حوارى جنوا. خرج منه بعد أربع سنوات لكنه كالعادة، وجد نفس الأصدقاء الذين انتظروه بصبر ومهدوا له طريق السجن، حيث تعرفت عليه. الآن هو يعيش في بادوا ويعمل في تعاونية لتأهيل السجناء السابقين. كان قد أصبح مستقيما، لكنه لم يستطع أن يرفض يقوم بهذا المعروف من أجلي. كان مدينا لي بالكثير.

كان الوغد الذي تسلي بمورينا يعيش بصحبة زوجته وطفلة في فيلا في مركز مدينة أيست، مدينة جميلة في ضواحى فينيسيا. في الليلة ذاتها حين خرج من سيارته ذات الخمسين ألف يورو واستدار ليعود لمنزله، وجد نفسه في مواجهة روكو، الذي ضربه على وجهه وسدد له سلسلة من اللكمات العنيفة والدقيقة مسددا نحو الأنف والحواجب.

بعد بضع ساعات. حين تأكدت أنه خرج من غرفة الطوارىء، اتصلت به من كابينة تليفون. وأعطيته محاضرة في الأخلاق الحميد. أقسم لي بحياة ابنته أنه فهم الدرس.

ثم فقدت السيطرة "إيه اللي جرالكوا؟" صرخت. "ماعدتوش عارفين تناموا مع واحدة بشكل طبيعى؟ لازم تبقوا عدوانيين ومجرمين؟".

دخنت زوجاً من السجائر محبوسا في السيارة، ثم عدت للوجار، حيث وجدت ماكس الذي بقى اليوم كله في شقته. عرض على صورة فاتيون بايتيش التي التقطت وقت إلقاء القبض عليه.

"شكله فلاح أكتر من وريث لإمبراطورية مافيا. بص الزبالة اللي لابسها؟".

لم يكن مخطئا "لسة الكوسوفيين دول عفشين. هايلاقوا ذوقهم الخاص بيهم لما تكتشفهم هوليوود".

"أنت بتتفرج عالتليفيزيون أكتر م اللازم".

"خالص. لقيت حاجة تانية عنه؟".

"ولا حاجة".

"أنا شفت مورينا". وقصصت عليه قصة عصابة البوليس.

لوح بيده منزعجا "خرا. وحتى لو كان صح مش هايساعدنا نلاقي سيلفي".

وفي بافل ستويكوفيتش بوعده ودعانا لإجتماع في اليوم السابع. هذه المرة في محل حلويات أنيق في فيتشنسا. سأل عن أخبار روسيني بخصوص الرحلة وأبدي أسفه أن الأمر صعب ويستغرق وقتا طويلا هكذا.

كنا محاطين بأشخاص مسنين وأمهات يطلبن من أولادهم أن لا يلطخوا أنفسهم بالشيكولاتة والحلويات. وكان كل شيء مع الوقت يصطبغ بالمزيد من صبغة الكريسماس. كان كل ما حولنا يتألق ويجعل مآسي تلك الأيام تبدو خيالية.

طلب رجل العصابات شاي وانتظره دون أن يتفوه بكلمة واحدة. لحظة واحدة قبل أن ينفجر روسيني ويضربه على الحائط بدأ يتحدث.

"بالنسبة لجريتا جاردنر ماعرفناش أي حاجة" قال موضحا. "بس عرفنا أن في رقاصة شرقية بأوصاف الست اللي اتخطفت بتعرض في بيت دعارة في جرينوبل".

لمحت وجه بنيامينو. بدا كما لو كان منحوتا من الرخام. نظر له ستويكوفيتش في عينه مباشرة.

"أنا آسف أني بابلغك الأخبار دي... ده مكان مخصوص جدا".

بلع صديقى ريقه "مسلخ اغتصاب جماعى؟".

"للأسف أه".

للحظة لم استطع التنفس. اغتصاب جماعى. يشاهدها الرجال ترقص، وحين يكونوا قد أثيروا بشكل كافي يخلعون بناطيلهم.

"العنوان" زجر روسيني. "هاروح اجيبها".

"في مشكلة وأؤكدلك إني ماليش كلمة فيها".

"إيه المشكلة؟".

"ممكن أديهولك بس لو عملت رحلتين تانيين".

فغر المهرب السابق فاه من الصدمة. كان مصدوماً أكثر مما يمكنه من التفاعل.

"ازاى ممكن تكونوا بالقسوة دي؟". سألت ساخطا.

"بالنسبة لنا ده مجرد شغل يا أستاذ بيوراتي".

تدخل ماكس الذاكرة "الاتفاق كان المعلومات الأول والنقل بعدها".

"هما في بلجراد قلقانين لو حاجة حصلت للأستاذ روسيني، ممكن البضاعة ماتتنقلش. وقيمة البضاعة أكبر بكتير من الست دي. أنا متأكد أنكوا هتفهموا الموضوع من وجهة نظرنا."

أخيرا استجمع بنيامينو قواه ليتحدث. "الكل عارفيني في التهريب، عارفين أني طول عمرى باحترم كلمتي. ماينفعش تعاملوني بالأسلوب ده".

"لا ينفع".

"تفتكر هي هتستحمل لحد امتي؟".

"دي مش مشكلتي".

"لو ماتت هابقى أنا مشكلتكم".

"أنا فاهم موقفك. لكن تهديدي مش فكرة كويسة".

أدخل أحد بلطجيته يده اليمني في الجيب الأيسر لجاكيته. كان يمكن أن يصاب أول شخص يتحرك مننا بطعنة سكين. أما البلطجى الآخر فبكل تأكيد كانت يده الموجودة داخل جيب معطفه تحمل مسدسا.

ومع ذلك كان روسيني رجلا يائسا، مغدور به ومنهك من التوتر والتعب. أي في كلمة واحدة خَطِر. تيقنت من ذلك حين رأيته يتابع بحرص مواقع البلطجيين. كان يحسب فرصه في ضرب ستويكوفيتش قبل أن يستطيع أيا منهما التدخل.

أنشبت أظافرى في فخذه وهززته" الأطفال" همست "الأطفال".

"إيه؟". نظر حوله ثم أدرك أننا في محل حلويات مليء بالأبرياء.

تجرع كوب البيرة الخاص به ونظر لي نظرة امتنان.

الآن أتى على الدور لأتحدث "سبع أيام من النهاردة عشان الرحلتين".

"ماقدرش أوعد".

"ساعدنا" توسلت إليه. "أنت الريس هنا".

قام" هاشوف ممكن أعمل إيه".

رحل من المحل بصحبة واحد من حراسه الشخصيين أما الآخر فبقى جالسا معنا محملقا في بينيامينو. كان سيقوم ويرحل فقط حين يصبح سيده في أمان.

بعدها ببضع دقائق رن المحمول. رقم خاص. أجبت على أي حال. كان ستويكوفيتش. "ماشي، نقفل الموضوع في أسبوع لو كان صاحبك ممكن يمشي في أجازته بكرة الصبح".

تمشينا قليلا تحت الأروقة، في صمت نلتقط أنفاسنا.

"أنت تروح ليوجوسلافيا، وأنا وماكس نروح لجرينوبل نحضر الشغل ع الأرض. عاوزين بيت آمن، وتحديد طرق الهروب".

هز روسيني رأسه. "جريتا جاردنر هاتعرف بوجودكوا ودي هتكون نهاية سيلڤى".

"هنكون منتبهين"

"بنيامينو عنده حق" تدخل السمين. "مادام عندها إمكانية توصل لنا ظرفين، ففي حد في المنطقة شغال معاها. ومافيش طريقة أسهل من كدة تخليها تقدر تراقبنا."

حملقت فيه. لكن ما حدث كان قد حدث.

"ليه بتقول ظرفين؟" سأل روسيني.

"اسأل ماركو"

"الظرف التاني كان فيه صورة فضلت أنك ماتشوفهاش. قطعتها."

"كانوا كام واحد؟".

"اتنين."

اومأ برأسه ثم أدار وجهه ناحية نافذة عرض في محل حيث مَثَّل أنه يشاهد طاقم بورسلين. "هاطلب من لوك وكريستين يروحوا جرينوبل".

"ودول مين بقى؟" لم أسمع بهذه الاسماء أبدا من قبل.

لوك أوتران وكريستين دورييز. رجل وزوجته، شركاء في العمل. التخصص، السرقة بالإكراه. كانا يقطنان في مارسيليا لكنهما حرصا على أن يبتعدا عن ترك أي آثار عن عملهما بالقرب من محل أقامتهما. عملا في الضواحي الفرنسية وغالبا ما عملا خارج البلاد. بلجيكا، أسبانيا، وإيطاليا في أحد المرت. سيارة مدرعة في منطقة تورين. كانت الخطة هي خطة روسيني.

الزميلان الأخران هما برتغاليان تم إلقاء القبض عليهما بعد عدة شهور بينما كانا يحاولان الهروب بغنيمة سرقة بنك في ألمانيا. منفذون ممتازون لكن غير موثوق فيهم في مجال التخطيط.

"والمارسيليين كويسين في التخطيط؟".

"عمرهم ماتقبض عليهم. هما عارفين هما بيعملوا إيه."

"كنت فاكر إنك قابلت لوك ده في السجن".

"لأ، عرفت عمه".

جرينوبل، الخميس، 21 ديسمبر، 2006

نظرت لنهر إيزير من أعلى وأنا في التلفريك. كانت المياه الداكنة تنساب ببطء، وكنتُ مُعطيا ظهري للجبال. أمامي، بعد ضفة النهر كانت الأحياء الإيطالية القديمة، بلافتات المطاعم ومحال البيتزا، تحمل أسماء تذكر بالأماكن التي هجرها أصحابها بحقائب كرتونية وبطون خاوية.

كان ماكس جالسا أمامي، مثبتا نظره على قمة الجبل، وكان بينيامينو يتحدث بصوت منخفض مع لوك وكريستين. فريق الإنقاذ مكتمل. كنا نحتل كابينة صغيرة بأكملها ونحن جالسون في دائرة، فقاعة من الصلب والزجاج الآمن تحمل السائحين من المدينة لقلعة الباستيل، التي تشرف على الوادي كله.

كنا قد وصلنا الليلة السابقة من إيطاليا، بعد أن تأكدنا تماما أننا لسنا مرصودين. كانت وجهتنا النهائية هي تشامبري، على بعد 20 ميلا من جرينوبل، حيث أجر المارسيليون شقة لمدة شهر في مبني قديم من مباني وسط البلد. كانت مالكة المنزل أرملة لص بالإكراه، وبينما عاشت حياة

محترمة ظاهريا كعاملة في مخبز، لم تجد غضاضة في أن تلتفَّ حول ذلك باستضافة الأصدقاء القدامي لزوجها. غرفتان، حمام ومطبخ.

أيقظنا لوك الساعة الثامنة بالضبط مع قهوة وكرواسان. فتحت عيني فوجدت نفسي وجها لوجه مع شخص نحيف له شارب ماعز. موضة قديمة طبعا، لكنني كنت موقنا أن هذا المظهر هو أداة مهنة، وأنه قبل أن يقوم بأي مهمة يحلق هذا الشارب. كان وجهه حافلا بالعديد من التجاعيد الغائرة، رغم أنه لا يفوق الأربعين سنة إلا قليلا. جاكيت جلد، جينز، حذاء برقبة. يمكن بسهولة أن تظنه عامل مصنع أو حرفيًا.

مددت له يدي، لكنني لم أكن أعرف كلمة فرنسية واحدة، فتركتُ ماكس وبنيامينو يتابعان مجرى الحديث. بعدها بقليل ظهرت كريستين، كانت ترتدي قميصا قطنيا واسعا للغاية تستخدمه كقميص نوم. خمس وثلاثون سنة، شعر قصير، وجه ذو ملامح حادة لكن محببة. لا تتخطى المتر وسبعين، نحيفة، صدرها صغير لكنه تام الاستدارة نتيجة للتردد كثيرا على صالة الجيمنازيوم. عيون سوداء، بها تصميم.

حين رأت روسيني ألقت ذراعيها حوله وقبلت جبهته الصلعاء، ثم قالت شيئا عن سيلڤى فخيَّم الصمت على الغرفة. سحبت سيجارتين دون فيلتر، ووضعتهما بين شفتيها. أشعلتهما ومررت إحداهما لبنيامينو. إشارة تدل على صداقة واحترام، وأنها ليست فقط علاقة عمل. طالما لجأ إليهما صديقي فهذا يعني أنهما ليسا فقط محترفين يجيدان أداء مهنتهما بل أن لديهما أيضا قلبا وبعض المباديء.

تبعنا سيارتهما وصولا لجرينوبل عبر طريق سريع مزدحم جدا. كانت جبال الألب التي تحيط بالمدينة مغطاة بالثلوج بخفة. عام آخر شديد الحرارة، وعلى السائحين أن يرضوا بالجليد الصناعي إذا أرادوا التزلج أثناء الأجازات.

كانت الشمس لم تشرق بعدُ هذا الصباح فوق قمة جبل مونت راشيه، حيث بنيت القلعة، وكانت رياح تجمُدُ العظام من برودتها تهب. تسللنا داخل بار لشرب شيء ساخن. مدعين أننا سائحين، زرنا المتحف ثم تجولنا لنبحث عن الآثار الأخرى. وفي النهاية تسلقنا سطح القلعة المركزية المعروف بلفيدير فوبان. حيث يمكننا مشاهدة المشهد البانورامي أفضل. ناولنا لوك منظارا قويا تحدث بضع دقائق عن الجبال القائمة على يميننا، ساردا قصص عن أحداث المقاومة الفرنسية للضيوف المتطفلين. ثم استدار للمدينة. كان ماكس من حين لآخر يهمس في أذني بكلمات مترجمة.

وأخيرا انتقلنا للجانب الأيسر. قلعة أخرى وقمة أخرى. وكانت كلتاهما تحمل نفس الإسم. على منحدر الجبل كان يمكننا أن نرى مدينة كورنس الصغيرة، التي يقل عدد سكانها قليلا عن أربعة آلاف نسمة موزعين على أحياء مختلفة، قرية رصينة مغلقة وممتلئة بالفلل الأنيقة. في واحدة من تلك الفلل كانت سيلفى محتجزة. رأيت عبر العدسات منزلا كبيرا بني قبل الحرب، لكننا كنا بعيدين للغاية فلم استطع رؤية تفاصيل أخرى.

"ماينفعش اوديكم تشوفوه من قريب الصبح" قالت كريستين

موضحـة. "أنا عديت من هنـاك على رجلي في تلات أوقات مختلفة، دايما في حد بيحرس من الشباك ولاحظت أنه بيراقب العربيات كمان".

"أنا رحت هناك بالليل متأخر" قال لوك. "كلاب الفلل التانية شمتني وقعـدت تنبح، بس مافيش واحد سـاب سريره الدافي عشـان يبص من الشباك. في ساحة الـڤيلا كان فيه عربيتين سيدان فاخرة، وكانت الشبابيك محصنة وماشفتش حاجة غير كدة".

"بالنسبة لماخور الضيوف مش كتير" لاحظت السيدة.

"هو مش ماخور بالضبط" شرع ماكس ذاكرة في الشرح، لكن صوته انحبس في حلقه حين أدرك أن مواصلته الكلام ستزيد بشدة من معاناة روسيني، الذي على العكس من ذلك أثبت مرة أخرى أنه رجل شجاع.

"جوة مافيش غير سيلـڤى" قال ببطء "وعدد الرجال مش ممكن يكون أقل من تلاتة. قصدي تلاتة في المرة الواحدة".

قبضت كريستين على ذراعه ومضغت بين أسنانها سباب طويل ومفصل.

"يعني من الأخر مانعرفش أي بيضان" واصل المهرب. "ولازم نثق في اللي قاله العرص بافل ستوكوفيتش".

كان رجل العصابات الصربي، بعد أن أنهي بنيامينو النقلتين، قد قام أخيرا بالإفصاح عن مكان احتجاز سيلـڤى، وأضاف أنه طبقا للمعلومات التي وصلته فسيتم إغلاق المنزل في أعياد رأس السنة وسيتم نقل راقصة

البطن لموقع أخر. "هاخش اول ماتضلم وأجيبها من جوة" أعلن روسيني العجوز.

لم يكن لدي أحد ما يقوله. أشار لوك لطريق على أطراف المدينة يحيط بمدافن وجسر بعيد قليلا. "هنعدي من الطريق ده. في المرواح والرجوع".

"مانتوش مجبرين تيجوا أنتو عملتوا كتير لحد دلوقت".

"بكدة لوجينا هتبقى مديون لنا ولازم ترتب لنا شغلانة جامدة في إيطاليا عشان ترد الجميل" مزحت كريستين.

"واضح طبعا أني أنا وماكس هنيجى" قلت.

"أنتوا عمركوا ما مسكتوا مسدس في حياتكوا".

"ممكن يكون لينا فايدة حتى لو مش مسلحين".

"ممكن نسوق مثلا" اقترح السمين.

"أحسن نستغلكوا لتشتيت الانتباه" اقترح لوك. "هما هيرنوا الجرس كأنهم مناديب أو أعضاء في جماعة دينية، واحنا هنكون في الجنينة قرب المدخل".

هز روسيني رأسه بقليل من الاقتناع. "حاجة مش معتادة خالص وممكن تلفت انتباههم. الحاجة الوحيدة اللي ممكن نعملها هي أننا نفتح باب أو شباك بعتلة وندخل ونشوف بعدها اللي هيحصل".

"مش خطة عظيمة" اعترضت كريستين.

"عندنا كام ساعة عشان نحسنها. الأهم إزاى مانعملش دوشة؟"

"ثلاث بنادق قصيرة عيار 22 بكاتم صوت وشاحن عشر طلقات. جديد طحن بعلبتة مسروق من كام يوم من محل ذخيرة في فيينا"، أجاب لوك. "هنا في فرنسا دي شرعية. يستخدموها في الصيد بالليل. بس لو الدنيا باظت معانا تلات حتت أقصر وأتقل".

"طب وسايل المواصلات؟".

"عربيتين. مش جامدين قوى بس احنا غيرنا اللوح بلوح من موديلات شبهها. يمشوا الحال".

في الساعة السادسة مساء بالضبط اخترق الحديقة بنيامينو ولوك وكريستين مسلحين ومتنكرين عبر تسلق السور الخلفي. بدأت كلاب الـڤلل الأخرى تنبح ما إن اقتربا من المنزل. راقبت أنا وماكس من وراء عجلتي قيادة سيارتي الهروب نوافذ البيوت بطول الطريق. لا توجد حركة. يبدو أن السكان اعتادوا على الإنذارات الكاذبة، ربما كان يكفي مرور أي حيوان آخر لإطلاق العنان للنباح، كما أنها ليست منطقة مأهولة بالمجرمين. في الحقيقة كانت المكان المناسب لإخفاء هارب. أو رهينة.

في السادسة والنصف كنا منتظرين أمام الفيلا. خرجت أولا وبدأت أتلصص من خلال فتحات البوابة الحديدية للممر.

"مش شايف غير مرسيدس"

"بقى لهم جوة وقت طويل".

بعد مرور دقيقتين انفتحت بوابة المشاة الصغيرة التي تؤدي للممر. وللحظة ظهرت كريستين في ثيابها السوداء وبقناع يخفي وجهها. وأشارت لنا لندخل.

"سيلفى محبوسة في أودة في الدور الأول الباب مصفح ومش عارفين نلاقى مفتاح. أنتوا أدخلوا وأنا هاراقب هنا"

ترجم لي ماكس ونحن نسحب الأقنعة على رؤوسنا.

أثاث ثمين جديد وعلى أحدث طراز واشتراه حديثا شخص ذوقه من أسوأ الأذواق. خطونا فوق جثة رجل ميت في منتصف الصالة المؤدية للسلالم، ففهمت أنه لم يبق أحد ليمنحنا أجابات.

وصلنا لبنيامينو ولوك وهما يحاولان نزع إطار الباب من الحائط. كان يمكننا أن نسمع بوضوح صرخات سيلفى المختنقة وهي تنادي على رجلها.

"دوروا عالخرا المفاتيح دي" صرخ المهرب مشيرا نحو باب ما.

دخلنا لما بدا كأستوديو، كان بداخله قتيلين أخرين بطلقات الرصاص. الأول ممددا ووجهه للأرض على سجادة بيضاء سميكة وبقعة دماء تتسع من تحته والرجل الأكبر سنا ملقى صريعا على كرسى مكتب، بثلاث أو أربع رصاصات في صدره خلف مكتب كبير.

أشرت لزميلي عليه "ده أنا عارفه".

"ده فاتيون بايتيشي. الـڤيلا ملك المافيا الكوسوفية".

خطوت مقتربا من جثمان ابن زعيم مافيا بيس وبدأت أفرغ جيوبه. لا شيء. لاحظت أن هناك سلسلة ذهبية سميكة معلقة على رقبته لم تظهر في صورة الصحيفة. سحبتها ووجدت في نهايتها مفتاح، قصير ومفلطح، على شكل فراشة.

"لقيته!" قلت وأنا أعدو خارجا من الغرفة.

اختطفه روسيني من يدي وأدخله في القفل. انفتح الباب وبدا أمام أعيننا شبح المرأة التي نعرفها.

كان على وشك أن يعتصرها في حضنه ثم توقف من الحيرة والخوف أن يهشم هذا الجسد الهش للغاية. فهمت فأخفت وجهها وانفجرت في البكاء.

وضـع بنيامينو بندقيته علـى الأرض. "حبيبتي" غمغـم وهو يحيطها بذراعيه برقة.

"لازم نمشي" قال للوك مندفعا.

كان محقا. نظرت حولي. لم يكن الرجل السمين موجود. كان لا يزال في الأستوديو يفتش أدراج المكتب.

"سيبه. لازم نمشي".

"ليه سيلـڤى كانت أسيرة عند فاتيون بيتيشي؟ مش حاسس أنها صدفة عجيبة؟".

"يمكن. هابقى أفكر في ده لما ماكونش في خطر أني أقضى بقية عمرى في سجن فرنسى".

سيارتين وفريقين. كنت أقود السيارة التي تقل بنيامينو وسيلڤى، كانت حافية وملتحفة بغطاء. وكان المارسيليين بصحبة ماكس.

"أنا سعيد جدا أني شفتك تاني" قلت لها. "ماعندكيش فكرة قد إيه".

مدت يدها ومست شعرى. لم يتوقف بنيامينو عن أن يهمس لها بحبه حتى وصلنا لمكان ركن السيارات. انزلقت كريستين داخل سيارتنا لتقبل سيلڤى، ثم انضمت لزوجها داخل سيارتهما. كانا سيقوما بالتخلص من البنادق في مياه نهر إيزير المتجمدة، ثم يتوجها لمنزلهما.

لم تكن سيلڤى في وضع يسمح لها بالسفر حتى بونتا سابيوني. كانت تحتاج وقتا لتتعافي. وكانا سيبقيان في منزل تشامبرى لما يتطلبه الأمر من زمن. أخذها بنيامينو بين ذراعيه وحملها للشقة كطفلة صغيرة ثم وضعها لتنام برقة على السرير في الغرفة الكبيرة.

دخلت أنا وماكس لنسلم عليها، لكنها أدارت لنا ظهرها ونظرت نحو الحائط. كان أمرا مفهوما.

"قول لها أننا بنحبها".

"لما ييجى الوقت المناسب" أجاب بنيامينو وهو مشتتا قليلا. كنا سعداء ومحطمون في اللحظة ذاتها. لم يكن يتوقع أن يجدها مدمرة هكذا. ولا نحن. لكن لو فكرنا في الأمر مليا فقد كان يمكننا استشراف ذلك.

"في حاجة لازم تعرفها" أخبره السمين. "القتيل في الأستوديو، اللي كان على الكرسى، كان فاتيون بايتيشي".

"طب إيه؟".

"اللي عشان يخرجوه هو وعشيرته من السجن رتبوا سرقة مخدرات معهد الطب الشرعي".

"ماشي، ف إيه؟".

"الحاجات كدة مش واضحة. لازم نعرف إيه اللعبة اللي اتورطنا فيها..."

احتضنه روسيني العجوز بذراعيه. "بص انا دلوقت بافكر بس في سيلفى، أما باقى الحاجات ماتفرقش معايا ببصلة".

"يمكن المافيا الكوسوفية ماتتفقش معاك على كدة".

امتلأت عيناه بالدموع. "هنا الست اللي باحبها واللي محتاجالي، وانت بتطلع ديني بالخرا ده؟".

استدار ماكس نحوى وهو ينظر لي محتارا.

"عندك حق. اتصل بينا لما تقدر" قلت بينما كنت أدفع رفيقى نحو المخرج.

لوجانو، السبت 27 ديسمبر عام 2008

"فلوسى بتخلص" تنهد روسيني.

"مشكلة كبيرة" علق ماكس "وسيلفى عاملة إيه؟".

استغرق رجل العصابات القديم وقت ليجد الكلمات المناسبة. "مارقصتش تاني. بس ده بس، هي في الحياة عموما مابقتش بتتحرك زيزمان. فقدت حيويتها".

كانت شفتيه منطبقتين في مرارة، وماعادت عيناه تضحكان كما اعتاد: العلامات الأكثر وضوحا للهزيمة. و لم يكن روسيني العجوز معتادا على الهزيمة.

لم يجد طريقة ليعالج بها سيلفى. لكنه لم يكن ليبأس. كان سيبقى بجوارها للأبد حتى لو كان معني هذا هو تحمل الاحتراق في الجحيم. كانت هذه هي طريقته في العشق. عشق رجل العصابات.

استدرت نحو النافذة لأشاهد البحيرة. فمنذ عشت في تلك الشقة في

لوجانو أصبحت لدي هذه العادة. يساعدني ذلك على التفكير.

كان بنيامينو قد وصل منذ عدة ساعات من بيروت، حيث كان هو وسيلڤى في حماية أسرة درزية قوية. كان يهرب معهم في زمن الحرب الأهلية الخمور والسجائر.

كان قد مر عامان وستة أيام على تحريرنا لسيلڤى وكنا مضطرين أن نتخفي عن أنظار معارفنا. قام المهرب العجوز ببيع الفيلا والقارب، وأنا وماكس بعنا البيت الريفي بأكمله مع الشقق والوجار: أموال سائلة للهروب من انتقام الكوسوفيين، جريتا جاردنر أو أي شخص لديه مصلحة في ازاحتنا من الطريق. فبعد خمس وعشرون أسبوعا من غارة فيلا كورنس لم نكن قد أفلحنا بعد في إعادة تركيب ما حدث في تلك القصة من تفاصيل.

لكن بوجود جثة فاتيون بايتيشي فهمنا أنه سيكون من العبث قتله ومحاولة البحث عن نجاتنا. ولنتجنب رصاص هذه المنظمات الإجرامية كان يكفي أن نتفرق ونقطع كل صلة لنا بحياتنا الماضية. بينما كان الهرب من الشرطة أكثر تعقيداً في عصر التطور التكنولوجى في مجال الأمن.

لم يبتعد ماكس ذاكرة كثيرا عن بادوا. فقد وجد ملاذه في فراتا بولسيني، بلدة ممتلئة بالفلل القديمة وذكريات الكاربونارية* والاشتراكية. وواصل تحديث ملفاته وعقد صداقة مع معمارى شاب وأسرته وأصدقائه، وقرر التعاون معهم لتكرير نبيذ يعرف باسم انكروتشيو كانيوني. ليحققوا حلم تقطير أول براندي بالمنطقة.

أما أنا فعبرت الحدود مع سويسرا وتوقفت في لوجانو، مقتنعا أنها المكان المناسب لمراقبة تطور الأحداث. فهناك، للزمن إيقاع مختلف.

كنت محقا. "حيث لا يحدث شيء" كتبت مرة في رسالة لماكس "وتمر الأسابيع والشهور عليك دون أن تترك أدنى علامة. لو أجبرني القدر أو الحيرة على البقاء هنا حتى نهاية أيامي، لا أعتقد أنني سأستطيع أن أجبرني على الندم".

لم أشعر حتى بالملل. التمشيات، البار، الحفلات الموسيقية، المسارح، السينمات، العديد من الصحف وبعض الكتب. عشت كشبح، أو كسائح يستمتع بما يفعله ولا يعود لحياته العادية. حتى لو لم تكن حياتي أبدا "عادية"، عدا فيما تحمله الكلمة من معني ينطبق على كوني أشارك في إدارة الوجار، وهذا فقط في حالة عدم عملي في قضية.

لم أكن أبدا شخصا "عاديا" ولا حلمت أن أصبح كذلك. حين كنت شابا وأغني البلوز لم يأخذ مني الأمر وقتا طويلا لأكتشف أن صوتي كفتي أبيض لن يتيح لي مستقبلا مهنيا مرموقا. باختصار كان يجب على أن اخترع لي شيئا لمحاولة أن أقضي شيخوختي بأقل قدر من المعاناة.

لكن السجن دمر خططي. وحين خرجت من السجن، دفعني وسواس الحقيقة للعمل كمحقق خاص دون رخصة. واكتسبت سمعة لدي المحامين الذين عملت لديهم أنني "صليبي"؛ بينما كنت أفعل ما في وسعي فقط لأتخطى المقلب القاسي الذي دبره لي القدر دون أن ادعاء أنني عرفت كيف أقلب الصفحة.

إلا أن حتى هذا الأسلوب في التعايش أصبح أيضا روتين. وجدت نوعا ما من التوازن، وكان يمكنني أن أواصل هكذا لزمن طويل حتى أقرر أن أتقاعد. وكنت حتى قد بدأت في التمهيد لهذا الوضع منحيا بعض المدخرات جانبا. لكن موت رجل المافيا الكوسوفي أفسد كل ذلك.

في هذه اللحظة كانت لوجانو قد غلفتني بجمالها الساكن، الناعس والمهندم، محولة افتقاد أماكن وأشياء الماضي وعدم اليقين بالمستقبل لأمور أقل قسوة.

في الحقيقة لم تجر الأمور هكذا بالضبط. كان لـڤيرنا دورها، كانت هي الخرق الوحيد لأبسط قواعد الأمان.

فقد دفعتني حاجتي الماسة لأن أضع تسجيلاتي الصوتية وأسطوانات موسيقى البلوز في يد أمينة لطرق باب بيت سيلڤى الجديد. في البداية نعتتني بالأبله لأنني ورطت نفسي في متاعب تجبرني على الهرب، ثم قبلت أن تحمي هذا الجزء الغالي من حياتي بل إنها قامت أيضا بدس ورقة صغيرة في جيب الجاكت الذي أرتديه تحتوى على عنوان بريدها الإلكتروني.

بعدها بشهور عديدة وبينما كنت جالسا على مقعد بار في أحد فنادق الخمس نجوم، لاحظت سيدة تستخدم الأنترنت. كانت تبتسم بينما تكتب بريد ما. فعدت من فورى للبيت وكتبت لسيلڤى من نفس العنوان الذي أستخدمه للتواصل مع ماكس وبنيامينو.

كان ردها أنها يمكن أن تأتى للقائي، لكن على أن أثق بها وأكشف لها المكان الذي أختبأ به. بعد أسبوعين ذهبت لإحضارها من المحطة. كانت

مختلفة. بل وبدت لي أجمل بكرشها.

"يالهوى، انتي حامل!".

" أه وبالنسبة للموضوع ده أنا كمان متجوزة".

"مين سعيد الحظ؟".

"راجل كويس يستاهل إني أربي له أبن".

"مش سامعك بتقولي كلمة حب".

"انت لسة حتى ماخدتنيش بالحضن وبتطلع عيني؟".

"آسف" غمغمت وأنا استجمع شجاعتي لأحتضنها. "أنا بس متفاجىء".

"أنا تعبانة خدني البيت".

بعد أن خلعت ملابسها واستلقت على السرير لترتاح. اقتربت منها ووضعت أذني على بطنها.

مررت أصابعها في شعرى. "البيبي نايم دلوقتي".

"انتي في الشهر الكام؟".

"الخامس".

"ولد ولا بنت؟".

"بنت".

"وانتي مبسوطة؟".

"أه".

"وده حصل لوحده ولا أنتي اللي كنتي عاوزاه يحصل؟".

"الوقت بيجري، والحمل في سني ده مش حاجة سهلة".

"وانتي بتبهدلي نفسك عشان تلاقى المحبين القدام؟".

"كان نفسي أشوفك" همست وهي تبحث عن حضني.

بقينا هكذا في صمت. كان ذلك صادما بشكل سار. كنت أعلم أن ليس لديها أي نية للعودة في حياتي، لكنها لم تبعدني تماما عن حياتها. بل أنها قررت أن تحاول أن تعثر على ركن لنا وحدنا. وسأجعل هذا يكفيني، كان أكثر مما كنت أتوقع.

بعد فترة ذهبت للحمام وحين خرجت كانت عارية تماما. كنت أعرف هذا الأسلوب في التنفس وفي قضمها لشفتيها فخلعت بنطلوني. استلقت فيرنا في منتصف السرير، جذبتني من كتفي ودفعتني نحو بطنها. "فاكر لسة أنا كنت باحبه ازاى؟".

عادت بعد ولادة طفلتها لتعرفني عليها.

"أعرفك بإيما".

"أهلا إيما" غمغمت متذمرا. كانت البراءة المجردة للأطفال لها هذا

التأثير على دائما. فلا يوجد أحد في عالمي بهذا الشكل.

قهقهت ڤيرنا باستمتاع. "لازم تشوف نفسك... ".

بعدها، شاهدتها وهي ترضعها. وحين غادرا ظل عبيرهما يؤنسني ليومين آخرين.

كنت أراهما مرة كل شهر.

"بتقولي لجوزك إيه؟" سألتها ذات مرة.

"أكيد مش الحقيقة" اختصرت. "مش هايفهم ومش عاوزة أخسره. أنا باحبه. باحبك أنت كمان يا ماركو، بس بشكل مختلف. أنتوا رجالة عمرى".

"وأنا ممكن أقولك إني باحبك؟".

"لأ. أنت بس لازم تسكت. وإلا ممكن تدمر كل حاجة".

فعلا. لم أفهم ابدأ أي شيء عن النساء.

أما أصدقائي فلم أرهم حتى ذلك اليوم. كان يوما قاسيا، وكان ثلاثتنا متأثرا لكننا لم نترك أنفسنا على سجيتنا في البداية. فقد كان علينا اتخاذ قرارات هامة أولا، بعدها كان يمكننا أن نشرب نخب صداقتنا. وكان الخمر سيقوم بحل عقدة ألسنتنا وستأتى لحظة البوح. لم أكن أطيق صبرا حتى أخبرهم بأمر ڤيرنا.

"أنا ماصرفتش كتير" قال السمين لروسيني. "لو أنت لازمك فلوس...".

"وانا كمان معايا فلوس" تدخلت.

"شكرا ليكوا بس أنا قررت أعمل عصابة. عندي فكرة عن "خبطة هتنقلنا نقلة جامدة" أعلن روسيني.

"أنت بتتكلم بالجمع ليه؟ احنا مش هجامين. وعمرنا ما كنا".

"ماشي بس المرة دي هتعملوا مجهود، مش مسلحين قصدي" رد بنيامينو. "اللعبة دي فيها فلوس كتير لدرجة أننا ممكن نسوى حساباتنا. اليومين دول كل حاجة بتدفع فيها دم قلبك".

تبادلت نظرة مع ماكس. فبعد سبعمائة وسبع وثلاثون يوم كرس فيهم روسيني العجوز روحه وجسده لسيلفى قرر أن يشن حرب على الأوغاد الذين تلاعبوا بنا كالدمي سابقا ثم أجبرونا على الاختباء. لم يكن مبالغا، استخدم ألفاظ حذرة للغاية، لكنه كان يرى الثأر هو الوسيلة الوحيدة الممكنة لتحقيق العدالة.

فالحديث عن عودتنا للحياة العادية سيكون ضربا من العبث، خاصة بعد أن قتلنا وريث أسرة من أسر المافيا. فميثاقهم للشرف لا يعترف بالاستثناءات.

"هي الحكاية تستاهل؟" فكرت بصوت مرتفع. "في معني أننا نخاطر بخسارة أكتر من اللي خسرناه؟".

رفع روسيني كتفيه. "يمكن عندك حق، بس سيلفى بقالها سنتين

بتصرخ وهي نايمة ومش قادر ألمسها ولو بطرف صباعى. ومش قادر أفكر أني أعيش كدة من غير ما أخلي كل اللي ليهم دور في خطفها يدفعوا التمن".

"بيروت مش في الناصية اللي ورانا" اعترضت. "هاتعمل إيه مع سيلفى؟".

"أنا أخدت موافقتها. هي عاوزاني أقتل كوابيسها".

لا غبار عليه. استدرت نحو السمين "وأنت؟".

"احنا صحاب مش كدة؟ ده لوحده سبب كفاية، بس عموما الحكاية تستاهل نكمل للآخر، لأنهم في الأخر كدة كدة هينيكونا".

"قصدك إيه؟".

"17 فبراير اللي فات كوسوفو أعلنت استقلالها من طرف واحد. تمثيلية لاستهلاك الرأي العام العالمي. وعلى أرض الواقع المافيا دلوقت تقدر تكسب حريات أوسع وحماية أكبر، والشهور اللي فاتت استقرت تماما في الشمال الشرقى لإيطاليا. يعني م الأخر، في النهاية هيكونوا جمعوا طرق ومعلومات كفاية عشان يلاقونا".

أشعلت سيجارة ومددت العلبة لبنيامينو. "ماكس ماكانش قاعد ساكت".

"مكانش عندي شك. الوحيد اللي أنتخ فينا هو أنت".

"فهموني" قلت. "بعد سرقة القرن هنجتمع كلنا عشان نطارد شبح جريتا جاردنر؟".

تململ روسيني في مقعده. "قبل ما سيلفى تتباع للحيوان فاتيون بايتيشي، كان من سوء حظها أنها قابلت الجاردنر دي بشحمها ولحمها. مارضيتش تقوللي أي حاجة تانية، لكن واضح أن المقابلة مكانتش كويسة خالص".

استسلمت. "مش فاهم أي خرا. ليه واحدة ليها علاقة بالمخابرات الصربية تبيع ست لرجل مافيا كوسوفي؟".

"ده اللي لازم نسأله لبافل ستويكوفيتش في يوم من الأيام" أجاب السمين وهو يسحب لابتوب من حقيبة. "هو وجريتا زملاء بالتأكيد، لكن الكوسوفيين مايعرفوش أنهم العقول المدبرة لقتل فاتيون بايتيشي".

"وأنت اتأكدت من ده ازاى؟".

"لأن حدود أوروبا الشرقية دلوقت مسيطر عليها كارتل. بالإضافة للكروات والبلغاريين والمجريين والرومانيين والأتراك والروس دلوقت هما كمان فيه، وبقوا سمن على عسل مع عصابات المافيا التانية".

"أخيرا وصلوا لاتفاق" علق روسيني.

شرح ماكس أنهم كانوا مجبرين على فعل ذلك. فمن ناحية كان يتم نقل الجزء الأكبر من البضائع الغير شرعية التي تدخل وتخرج من البلاد يوميا عبر الطريق السريع الذي يربط الحدود الشرقية مع بادوا. وقد جعل

هذا تنظيم التجارة أمر لا مفر منه لتفادي خسارة حمولات البضائع ودفع رشاوى كبيرة. ومن ناحية أخرى فبعد فترة قصيرة ستصدر الحكومة الإيطالية قانون يجرم الهجرة الغير شرعية وبالتالي: سيصبح على كل من يريد تجربة حظه في إيطاليا أن يلجأ للهياكل المنظمة من المافيات المختلفة. وفي هذا المجال الكوسوفيون هم الرواد، فقد انشأوا بالفعل وكالات سفر يمكنها أن تقدم بمبلغ معقول يبلغ 3. 500 يورو فيزات سياحية ألمانية مزورة صالحة لمنطقة الشينجن كلها. ومقابل 8000 يورو إضافي يمكنهم ترتيب زيجات صورية ولمن يقدرون على دفع الثمن يمكنها شراء تواطؤ بعض المسئولين ذوى الكياسة.

"واحنا هنبلغ الكوسوفيين أن ستويكوفيتش مش زميل موثوق فيه؟".

"هنقيم إذا كان ده مفيد في اللحظة المناسبة" أجاب الرجل السمين. "الأول لازم نعرف هما عرفوا إيه عننا".

"ماعتقدش كفاية أننا نروح نسألهم إيه اللي هما عارفينه".

ابتسم ماكس "ماحناش محتاجين".

ذهب روسيني للمطبخ لإعداد قهوة. عاد بصينية في يده وسؤال آخر برأسه.

"ليه نضفوا مسرح الجريمة في كورنيس، ووصلوا الجثث يا دوب على وقت الجنازة؟"

"واضح أنهم ماكانوش عاوزين يدمروا استغلالهم للمكان لصالحهم بأنهم يكشفوا وجودهم فيه".

"أو كانوا محرجين من اكتشاف جثة ابن الريس في ماخور" اعترض السمين. "فحسب ما فهمت كان فاتيون سادي مع الستات بشكل بشع. وفي ميتروفيتش وقت بجزرة الأقلية الصربية، كان ليه دور فيها ويمكن يكون ده سبب إبعاده في الأصل فمن وجهة نظر العيلة ماعادش يعتمد عليه أوى".

خرجت لشراء شيء نأكله من فرن متخصص في المأكولات الشهية لجنوب إيطاليا، كنت عادة أشترى منه الباستا والجبن الطازج.

"عندنا ضيوف نفسهم مفتوحة النهاردة" علقت البائعة. لو كانت تخيلت الأمور التي ناقشناها على العشاء لتعلمت بلا شك ألا تكون فضولية.

بعد المقبلات قررنا تناول الجزء الأول من خطتنا: السرقة التي ستمدنا بالمال اللازم لمواجهة أعدائنا أو الهروب أبعد إذا ساءت الأمور أكثر.

"زيما قلت في الأول" بدأ بنيامينو، "أنا قررت أكون عصابة. اتصلت بلوك وكريستين واتنين ألمان اتعرفت عليهم في بيروت".

"الهدف؟".

"ورشة دهب في مقاطعة الأسكندرية جنوب جنوة. الخزنة عبارة عن حصالة لعصابة تجار مخدرات لبنانيين موارنة. وهما مش هيبلغوا غير عن

الذهب المتسجل بشكل شرعي. لو كل حاجة مشيت تمام نصيبنا هيكون حوالي تلاتة مليون يورو".

"بس الخزنة الخرا دي هتكون مؤمنة كويس...".

"بس احنا هيكون عندنا عصفورة، عميل من جوة. المدير المفوض للشركة".

أفرغت كأسى من النبيذ الأحمر. "طب واحنا مش هنلاقى ف ديلنا عصابة من الناصحين في الآخر؟ لو المارونيين شكوا فيه هيلاقوا الطريقة اللي يخلوه يتكلم بيها".

ابتسم روسيني العجوز ابتسامة ماكرة "بس عمرهم ما هايعرفوا بينا. هما مش عارفين حتى أننا موجودين".

"العملية جاية من طرف الدروز؟".

"بالظبط".

أضاف ماكس. "مش وحش لو طلعنا إشاعة أن منظمة بافل ستويكوفيتش هي اللي ورا السرقة".

"إيه الوقت اللي خططته؟".

"19 يناير. ده هيكون يوم اتنين".

نظرت نحو رفاقى بفزع. "قدامنا أقل من عشرين يوم ومعندناش أي فكرة عن هانعمل إيه بعد كدة".

"أنا هاسافر لبيروت خلال تلات أيام. سيلقى منتظرأني عشان نحتفل براس السنة. عندنا وقت كفاية عشان نعمل خطة كويسة".

لم يطرف للرجل السمين رمش. لف قطعة لحم خنزير على ثمرة طماطم مجففة منقوعة في الزيت. مضغ على مهل ثم هز رأسه. "مافيش حاجة ينفع تتعمل في الموضوع ده. المطبخ الإيطالي ماينفعش معاه إضافة نكهات وطعوم غريبة".

ثم رفع سبابته نحوى. "ليلة 31 أنا اللي هطبخ".

"كنت فاكر إنك هاترجع فراتا بولسيني".

"ياريت. هما بيعرفوا إزاى يحتفلوا بجد هناك. بس متهيألي أن عندنا حاجات كتير محتاجة تخطيط".

بادوا، الثلاثاء، 10فبراير، 2009

أن تمشي متخفيا في مدينتك. شعور غريب. كان يحدث أن أقابل أشخاصا عرفتهم عمرا طويلا ولا يلقون على بنظرة. علاوة على أنه كان من المستحيل التعرف على فقد قمت بقص شعرى وتربية ذقن جدي على الموضة، كما ارتديت نظارة نظر مزيفة وغيرت مظهرى بشكل جذرى.

دخلت محل ذو مستوى راق في فيرونا. وبينما كنت أتحدث مع البائع أشرت نحو رجل خمسيني ثرى المظهر يقيس سترة وقلت: "عاوز ألبس زيه كدة".

كان الرجل فوق الستين ويعمل بهذه المهنة منذ أكثر من أربعين عام، فأخبرني، وهو يتطلع لي جيدا: "اتأخرت كتير. مش هاتقدر توصل لكدة أبدا. بس لو قللنا طموحاتنا شوية ورضينا بمستوى قريب يمكن نقدر نوصل لنتايج معقولة".

كان على حق. لم أشعر أنني على طبيعتي في البدلة والكرافتة، و لم يكن ذلك راجعا فقط لحكم العادة. قبل أن أغادر المحل طلب مني إعادة ذكر

تركيبات الألوان والأقمشة ولم أنجح في تذكر تركيبة واحدة صحيحة. هز رأسه مستسلما وتمنى لي حظا سعيدا.

لم يسبق لي طيلة حياتي أن صرفت على الملابس هذا المبلغ الضخم، لكن كان بإمكاني أن أشترى كل ما في المحل. منحتنا السرقة ثروة حقيقية: 511 كيلو ذهب. لحسن الحظ كان هناك سبعة مننا فنجحنا في الاستيلاء على محتويات الخزانة كاملة. سرقة سهلة مثل تلك التي تمت في معهد الطب الشرعي. فقد منحتنا شفرة الدخول إمكانية تعطيل الإنذار، ودخول المعمل ليلا والاختباء في الحمامات. وهناك انتظرنا وصول الموظفين والمالك ومعه مفاتيح الخزانة، التي يمكن فتح قفلها فقط بعد الساعة التاسعة صباحا.

"ماتعملوش فيا كدة" توسل إلينا بينما خارت ركبتياه.

تصرف بنيامينو ولوك وكريستين والألمانيين بحنكة المحترفين وتذكروا حتى التفوه ببضعة كلمات صربية حتى تلتقطها آذان المسروقين. أما أنا وماكس فقد أثبتنا برعونتنا أننا لم نخلق لنصبح لصوص.

في أقل من اثني عشر ساعة أبحر بنيامينو من ميناء ليفورنو بالذهب، متجها نحو فرنسا، حيث كان الدروز في انتظاره. وكان عليهم أن يرتبوا إعادة توزيعه على المشترين المختلفين.

وصاحبه زملائنا الأجانب ليحموا ظهره لو قرر اللبنانيين اللعب بقذارة. فحين تشمل اللعبة نقود كثيرة يمكن للمرء أن يفقد عقله. كان ينقص الشحنة 11 كيلو من الذهب المشغول، قررنا استغلاله في غرض آخر، لكن كان على هذا أن يبقى سرا.

ثلاثة أشخاص فقط علموا بعودتي للمدينة. رودي سكاتفارلا، المدير السابق للوجار، الذي حيَّيتُه بمظروف كبير ممتليء بالمال، معلنا له أنه سيذهب في إجازة وأن عليه أن يترك لي شقته.

ثم ڤيرنا، طبعا. ذهبت أسفل منزلها. قالت لي إنها في ساعة معينة بالنهار تخرج مصطحبة إيما للقيام بجولة، وكانت الشمس لطيفة في ذلك اليوم.

"صباح الخير، يا سيداتي الجميلات".

نظرت لي فاغرةً فاها.

"أنت رجعت عشان تتقتل؟".

"لو كدة كنت هالبس البوت بتاعي" أجبت وأنا أشير على حذائي السويدي ذي السيور والطرف المفتوح. "تعرفي إني طلبت في وصيتي إنهم يتدفنوا معايا؟".

عادت لها الابتسامة. "ماعرفش إذا كنت تعجبني كدة. أنت مختلف جدا".

"وأنا عريان أشبه جدا ماركو القديم".

"عايز تنام معايا تحت لحاف دافي؟".

"آه... أول ما ينفع"

"إيه درجة خطورتك؟".

فتحت ذراعي "ماعرفش".

أشارت نحو الطفلة التي كانت تحاول أن تخلع دب لعبة كان مثبتا في عربتها.

"خليني أشوفك لما تكون خرجت من المصايب اللي انت فيها".

أومأت منسحبا "ممكن أقولك أنك جميلة؟".

"لو مكناش قريبين كدة من البيت كنت بوستك. كان نفسي فعلا"

"وانا كمان".

"دلوقتي اختفي".

"تمشية سعيدة سيداتي الجميلات" قلت بصوت عال قبل أن استدير على عقبي.

أما ثالث من عرف بعودتي للمدينة فكان المحامي بونوتو، الذي كان على أن أقابله ذلك اليوم على العشاء. كان محاميا كثيرا ما يكلفني بمهام وعلم كلانا أننا يمكن نثق في أحدنا الآخر.

أعطاني موعدا في دونا إيرين في ميدان بونتاكورفو. كان أوبالدو مالك المحل يدير أحد البارات التي كنت أرتادها. حدجني بنظرة حين دخلت، لكن إذا كان قد تعرف علي فلم يظهر ذلك. اصطحبني للمائدة التي كان قد حجزها بالفعل بونوتو، الذي كان جالسا منتظرا وفي يده كأس من النبيذ بالفقاعات.

"انت اللي عاوز محامي؟".

"لا".

"أمال لابس متلمع كدة ليه؟".

"عاوز أتجنب ناس معينة".

"في إشاعة بتقول.."

"بتقول إيه؟".

"أنك أنت وشريكك بعتوا الوجار وطفشتوا عشان بعتوا واحد من زباينكوا للبوليس"

ذهلت "كلام فاضي. وأنت صدقت؟".

"أنا عارفك كويس جدا. وبعدين لو كنت عاوزتبقى مرشد كنت عملتها في الوقت المناسب".

عاد أوبالدو ليحضر الطلبات. واعترض بلطف لكن بحسم على الجمع بين مقبلات بحرية مع طبق رئيسى من اللحم.

انسحبت "اختار أنت".

"أكيد. والنبيذ كمان".

ضحك بونوتو ضحكة مكتومة أخفاها تحت شاربه الأبيض. "طيب أخدمك ازاى؟".

"المافيا الكوسوفية من عشيرة بيس اللي بيشتغلوا في الشمال الشرقي بيستخدموا مكتب قانوني واحد".

"عارفه. أنطونيو كريشونيا، زميل من بادوا. وهو حاليا مشغول في قضية معقدة نوعا ما".

"العادي، تهريب كوكايين لصالح الشباب السيس والمحترفين في المدينة" حددت. "نتيجة تحقيق طويل ودقيق".

"خش في الموضوع".

"عاوز أوصل لتفريغ المكالمات التليفونية والحية".

فهم ما أقصده فورا. "عشان تعرف كانوا بيقولوا إيه عليك وعلى زميلك".

"بالظبط كدة".

وضع شوكته في طبق التالياتلي ولفها. "وانا المفروض أطلب الجميل ده من زميلي؟".

"أحنا مستعدين ندفعله بكرم".

"أنا متأكد أنه في الأول ماكانش حاسب الآثار الجانبية، وأولها الخوف، اللي هينتج عن أنه يكرس نفسه خالص للدفاع عن نوع معين من الزباين".

"هو مش أول حد يرتكب الخطأ ده".

"صح. بس أشك ان الفلوس هتكون حافز كفاية. هو عنده زوجة وأطفال".

"ماعندناش أي نية نورطه في مشاكل. عاوزين بس نفهم هما عارفين إيه عننا".

"بس هو مش هايثق ولا حتى في كلمتي".

"بس هو عارفك من زمان".

"صحيح، بس بطلنا نشتغل مع بعض من فترة. هو عارف كويس إني ماباحترمش اختياراته المهنية".

"أنت كدة بتقوللي أنك مش هاتحاول حتى تكلمه؟".

"أه. ده مش مفيد".

هكذا فشلت الخطة "أ". كان يجب على الآن استخدام الخطة "ب" ولم أكن حقا سعيدا بذلك. انتظرت حتى أخذ النادل الأطباق.

"مش هاينفع نتخلي عن الموضوع ده".

تنهد "أرجوك يا ماركو...".

"أنا آسف. أنا عارف إنه موضوع سخيف، بس الأمور هاتمشي كدة: يا يرضينا ياهنكون مجبرين أننا نوضح للمتر كريشونيا أنه لازم يخاف مننا أكتر من الكوسوفيين".

"سخيف؟ ده كريه. أنت فاهم أنت بتطلب مني إيه؟".

اومأت برأسى "ماعندناش بديل".

نهض. "آسف مش هاقدر أكمل معاك. نفسي اتسدت".

في هذه اللحظة جننت. "لو عرفت إيه اللي ورا الطلب ده ماكنتش هاتتمنظر كدة بالأخلاق الحلوة".

"أنا شخص مهذب وأنت جاى عاوز تخليني مرسال لرسايل مافيا".

"لو عاوز ممكن أعمل لك برقية مشفرة*" حاولت استفزازه.

هو من أجبرني على التجاوز لهذا المدي. انتهي بي الأمر لتناول الطعام وحدي، وقلت للمضيفة أن صديقى جاءه استدعاء عاجل من المكتب.

"قبل مايخترعوا المحمول كانت الناس على الأقل بتقدر تاكل في سلام" علقت.

دون أن أطلب قدم لي أوبالدو نبيذ كالفادوس الفاخر*. كانت تلك هي طريقته ليقول لي أنه تعرف على. شعرت بالنكهة الحارقة للنبيذ في مسارها من حلقى حتى معدتي.

استمر ماكس ذاكرة في الاختباء في فراتا، التي تبعد بمسافة ساعة ونصف بالسرعة التي يقود بها السمين أي ضعف السرعة التي يقود بها البشر الفانون العاديون.

انتظرته تحت حماية بواكي ميدان انسوريتسون، متخذا حذرى من أن

ينتهي بي الأمر لأن تصورني آشعة المائة وعشرون كاميرا تليفزيونية ذات عدسات الزووم الدوارة التي تغذى القسم المركزيللشرطة بصور الأحياء كلها.

وكالعادة كانت الأمطار تنهمر بعنف. كان جاكت الطيار الجلد القديم سيدفئني أكثر من هذا المعطف الأنيق ذو غطاء الرأس الذي كنت أرتديه وقتها. بعد برهة ظهر تجمع من المواطنين الشرفاء يطاردون المجرمين. وكان بصحبتهم عميلي أمن خاصين حتى يحموهم من فتية المراكز الاجتماعية* الذين يركلون مؤخراتهم كلما قابلوهم.

رأوني من مسافة بعيدة وأشاروا نحوى. حينما اقتربوا مني لاحظوا لون بشرتي والملابس الأنيقة التي أرتديها وانسحبوا فورا. حياني من بدا كزعيمهم بصوت منخفض ونظرة آملا أن يحصل على نظرة عرفان أو تقدير. مثلت الانشغال بهاتفي المحمول. لا ينقصنا هؤلاء الآن.

كانت بادوا قد أصبحت مكتظة بالدوريات و"الدوريات الكبيرة" كما كانت تدعوها الصحف وبالأنواع التي تنبع منها.

وبحجة تنظيف الأحياء من موزعى المخدرات والعاهرات كانت الدوريات تعمل لكن ذلك في حقيقة الأمر كان يتم فقط كوفاء لوعود انتخابية عديدة، وكذلك كعناصر تقوم بالنيابة عن آخرين، بتمهيد الأرض لحملات الاعتقال السرى التي ستصبح علنية رسميا بموافقة البرلمان على الوثيقة الأمنية وساعتها ستوقف الحراسة.

وكان الرعاة الأساسيين لهذا القانون طبعا هم رجال المافيا من كل الجنسيات. فأخيرا سيتم تطهير المنافسين المستقلين من المجرمين الصغار المتعبين الذين ينتهي بهم الأمر غالبا على صفحات الجرائد مهددين الأعمال السرية للمافيا.

وفي نفس الوقت كان المواطنون الشرفاء من الشمال الشرقى مازالوا يولون ثقتهم أكثر للأقارب الأكبر سنا عن المربين من المهاجرين الغير شرعيين بينما يسمحوا لهم بتنظيف المنازل وأعمال الخدم بدون وثائق. وكانت الورش والمصانع وساحات البناء والطرق السريعة وورش تصنيع السفن تمتليء بالمهاجرين غير الشرعيين الذين عبروا الحدود المغلقة في حاويات مغلقة أو عبر البحر مخاطرين بحياتهم. أيدي عاملة رخيصة ويسهل ابتزازها بالقبض عليها وقت الحاجة دون المخاطرة أو الاقتراب حتى من شفا الأزمة. كما واصل نفس المواطنين الشرفاء مضاجعة العاهرات النيجيريات والمخنثين البرازيليين والسيدات الشابات والفتيات الصغيرات القاصرات من كل بلاد أوروبا الشرقية.

بحسبة بسيطة يمكن فهم كيف أن ذوى الوجهين ليسوا قليلين فمن ناحية يرفعون أصواتهم مطالبين بالتطهير ومن الجانب الآخر يستغلون الوضع بوقاحة.

في الشمال الشرقى كذلك يحكم أغنياء الحرب الغشاشون. أكثر من الأول، أكثر من الأول بكثير. ملاك المصانع الصغيرة والتجار ذوى العربات والفلل والاستثمارات المليونية بالخارج الذين لم يدفعوا يورو واحد ضريبة

في حياتهم. مدورى النفايات اللذين يصدرون للصين آلاف الأطنان من البلاستيك السام الذي يعاد استخدامه في تصنيع ألعاب الأطفال في العا لم كله. وقد قام رعاة من هذا المجال بإجبار سيدات من المهاجرات الغير شرعيات بفرز القمامة بأيديهن العارية.

ناهيك عن مراكز الاتصال التي تعمل بها عشرات من السيدات الايطاليات بشكل غير رسمي ولا تتلقين رواتبهن لشهور وشهور ويخرسن لأن في وجود أزواج وأطفال يعلنهم يصبح العمل حتى لو كان عبارة عن خراء هو عمل.

أو رجال الأعمال اللذين يديرون مواقع أنترنت تذيع أسماء مرافقات شابات، والذين يسارعون بشراء البيوت التي تسلي فيها السيدات الزبائن، لأن الاستثمار العقارى هو الأفضل حتى في أوقات الأزمات.

أو السياسيون والمدراء المستمرون في أخذ الرشاوى كما كانوا من قبل لكن الآن أصبحت تتنكر تحت اسم رسوم واستشارات وحين يتم ضبطهم يسارعوا بالتصريح بأنها "كانت أول مرة"...

أما الحقيقة فهي أن انعدام الشرعية التي اتسمت بها كل قطاعات الشمال الشرقى المجتهد أصبحت أرضا خصبة مثالية لزرع منظمات المافيا. وقد غرزوا فيها أسنانهم وسيمضغونها حتى الشبع. وأصبح غسيل الأموال هو نقطة الالتقاء بين رجال المافيا ورجال الأعمال الفاسدين. و لم يدعى سوى الساسة والصحافة والقنوات المحلية الجهل بأن هذا الجزء من إيطاليا يتركز فيه الجزء الأكبر من المنظمات الإجرامية. و لم يدّعوا هذا فقط

بسبب الانتهازية السياسية بل لأنه إذا كان هناك شيء ما تعلمته المافيا فهو أن انجاز الأعمال يستدعى أن يكونوا على علاقة طيبة بالجميع.

ورضى المواطنون الشرفاء ذوى الأصوات الانتخابية التضحية برؤوس المهاجرين لأن الباقى، الأسوأ، في الحساب النهائي يصبح مفيدا. فنقود المافيات العالمية تجعل الأعمال تزدهر خالقة دعم مواز للأنشطة الاقتصادية الشرعية. وما كان أكثر كفاءة حتى من الحملات الليلية للرجال ذوى البزات الفسفورية هو تمركز عربات الضباط الحذرين أمام العيادات التي تعالج "حتى" المهاجرين الغير شرعيين. وهو ما أصبح يحدث في عدة مدن من مقاطعة بادوا وبدء الخوف يدب في صفوف هذا الجيش من اليائسين.

ظهر ماكس فجأة بجوارى "أنا جيت".

"اتأخرت" استفززته وأنا أعبر الميدان. "اتناشر دقيقة. لما بتمطر باميل أني أقلل السرعة".

"خطر أنك تسوق على الطريق السريع بسرعة 50 في الساعة. كدة بتخاطر أن سواق عربية نقل بلغارى ولا يونأني بقاله عشر ساعات بيسوق إنه يخبطك من ورا".

"مزاجك وحش؟".

"أنا قلقان أن السنتين دول في سويسرا بوظوني. مش قادر أفكر في

سبب يخلي الشمال الشرقى الوسخ ده يتعاش فيه".

"بتبص حواليك ومش عاجبك اللي بتشوفه، هه؟".

"أوحش من كدة. بافكر واحلل والاقى كل حاجة مش مقبولة أخلاقيا".

" آه فعلا انت كدة بظت. انت لازم يتسحب السم من جسمك وترجع تعيش زيالمهرجين الوسخين زينا كدة "

"مش هيبقى سهل".

"هو أسبوع واحد من السبريتز* في الشارع وهاتشوف اللي هايجرالك".

كنا قد وصلنا لمدخل شارع المبني الذي يحتوى على مكتب المحامي كريشونيا. "تصدق أني أتشيك كدة لخروجة الصبح؟".

"مرة كدة تلبس زيباقى الخلق، أخيرا تعرف توسع من دايرة معارفك. الخطوة الجاية هي الفيسبوك، بس دي هاشرحهالك مرة تانية".

كان المحامي رجلا متوسط البنية، نحيل، وجهه بالباروكة يذكر بالسلحفاة. يبدو أنه تجاوز سن الستين بسنوات قليلة. انتظرنا على الباب لكنه تجنب تحيتنا. كان شاعرا بالإهانة لأننا هددناه لكننا لم نعر ذلك اهتماما. تبعناه حتى المكتبة، حيث كان في انتظارنا حوالي عشر حافظات ملفات ضخمة.

"أنا في مكتبي. عرفوني لما تخلصوا".

كانت التسجيلات بخصوص صفقة كوكايين متورط فيها عدد غير قليل من أعضاء بعض الدوائر والنوادي الخاصة في مركز بادوا والبيوت على تلال كولي يوجيني*. ومن خلال مرشد تم ابتزازه نجح الضباط في زرع بعض أجهزة التصنت، فاكتشفوا أن الكوسوفيين هم من يبيعون الثلج (الكوكايين) الكولومبي.

قهقه ماكس راضياً وهو يقرأ بعض الاسماء. "بص مواطنين شرفا قد إيه".

لم تهمنا ثرثرتهم عن مدمني الكوكايين ذوى الحيثية، بل تلك الخاصة بالكوسوفيين. ركزنا في قراءة الترجمة، وجدنا إشارة واحدة لنا. في محادثة حية بين شخص يدعى لينيز، وصل لتوه من بي، يسأل زميل له باسم أربين الشاباني (وهو زعيم درجة ثانية طموح وفقا لأحد تقارير الشرطة) حول إذا ما كان هناك أخبار عن أصدقاء "الرجل صاحب الراقصة الشرقية". فأجابه أنهم غادروا المدينة ولا أحد يعرف لأين توجهوا، مضيفا أنه من المزعج أن تذهب لتبحث عن أشخاص دون معرفة السبب وراء ذلك، إذ يمكن حينها أن ترتكب أخطاء ستدفع ثمن ما يترتب عليها.

ذكره لينيز بلطف أنه ليس مهما لدرجة أن يعلم كل شيء. رد أربن أنه ربما لا يجد الوقت الكافي ليبحث عن هؤلاء الأشخاص، وهو ما حسمه لينيز بتعبير من قبيل "اعمل اللي انت عاوزه".

انتقل بعدها الحديث للمشاحنات الداخلية في الأسرة. كان كلا من لينيز وأربين أولاد عم من الدرجة الثانية للمدعو فاتيون بايتيشي. عند سماع خبر وفاة هذا الأخير تألم الأب الزعيم لعشيرة البي ولكن ليس

بالدرجة الكبيرة. فقد فضل عنه دائما الابن الأصغر أجيم، الذي كان أكثر ذكاء ويحمل مواصفات الزعيم. وقد ظهر ذلك في الفترة التي قاد فيها وحدة من جيش تحرير كوسوفو.

"هو ليه دايما رجالة المافيا بيكون عندهم ابن مالوش لازمة؟".

رمقني السمين بنظرة حائرة. "مش واخد بالي".

"عندك الأب الروحى. فريدو، دون فيتو كورليوني الإبن التاني كان منحل وسمعته مش كويسة لدرجة أن ميتشيل كان لازم يقتله. وكمان جيمي الصغير، ابن تومي سوبرانو، كان مالوش لازمة، ده حتى حاول ينتحر".

"ماشي يعني انت بترغى وخلاص ولا انا لازم أفكر إذا كان في معنى للي أنت بتقوله؟".

"ماكانش في بالي اتعبك، هاساعدك. في رأيي واضح أن عيلة بايتيشي مش عاوزة حقيقة موت فاتيون المجنون تتعرف".

"ف إيه؟".

"فيبقى قبل ما نقرا التسجيلات دي كنت فاكر موقفنا أخطر من كدة بكتير وإن الزعيم بيصحى كل يوم الصبح يسأل عن خبر قتلنا. بس على العكس الحكاية مش في أولوياتهم، بالنظر لأنه ما بضنش أربن اللي مكسل عن متابعتنا".

"ومع كدة لازم تكون متأكد أنهم لو مسكونا هيقطعونا ويرمونا

للكلاب، بس عشان الكل يفتكر أن آل بايتيشي مايتمسوش".

"بس في رأيي لازم نستفيد من قصة تحفظهم على شذوذ فاتيون".

"الأول لازم نعرف النسخة الرسمية عن القتل، مافيش حاجة هنا. أربن ده بياكل نص الكلام. مش صدفة أنهم مش عارفين يقبضوا عليه رغم أنهم مقتنعين أن له منصب مهم في العشيرة".

نقل ماكس بعض الاسماء ووضع ملاحظات في كراسته بخطه الواضح الدقيق. أما أنا فقتلت الوقت بالتدخين عبر النافذة.

حين أعلمنا المحامي أننا انتهينا، لم يكلف نفسه عناء حتى رفع رأسه من الملف الذي يراجعه.

وقد أثار هذا جنوني. "طلبوا منك تهرب لهم محمول في السجن ولا لسة؟".

حدجني بنظرة نارية من الكراهية.

"لما يعملوا كدة افتكر أنك ماتقدرش تقول لأ".

جرني الرجل السمين من ياقة قميصى "سيبك منه. أنت مالك؟".

"بيتقنعر".

"كل المحامين الواصلين كدة دلوقت. ده إجبارى. وإلا هيشطبوه"

"إيه البيضان اللي بتقوله ده؟".

"إيه اللي أنت بتقوله! بتفكرني بشباب السياسة المحنطين".

"بتتكلم جد؟" سألت بانشغال حقيقى.

"خمرة وحريم أكتر وهتتظبط. الحق نفسك".

سمح لي اكتشاف أننا لسنا على رأس قائمة أولويات المافيا الكوسوفية بتخفيض معايير الأمان والذهاب لتناول مشروب خفيف في الأنفورا. قبل الدخول من الباب خلعت نظارتي وربطة العنق. فاستقبلني فورا تحيات ألبرتو وبعض الضيوف، اللذين أطلقوا وابلا من النكات عن غيابي الطويل وحدّثوا معلوماتي بخصوص معارفنا المشتركين. انتظرت لتناول وجبة خفيفة وعدت لشقة سكانفارلا الصغيرة القبيحة بنية الاستلقاء قليلا والعودة وقت مشروب المساء.

في منتصف النهار أيقظني رنين الجرس. رنة قصيرة. سكتة. رنتان. لقد عاد روسيني. كان يسحب خلفه حقيبة ذات عجلات تبدو ثقيلة للغاية.

"ماتقوليش أن جواها كل فلوسنا".

"ماكانش عندي وقت أعدي عالبنك". نظر حوله. أشار للسرير" ده بس مش كدة؟".

"في الكنبة".

"ماينفعش نلاقى حاجة أحسن؟".

"لازم نمشي أمورنا كدة".

شخر بعدم رضا. وبينما كان يغير ملابسه أخبرته آخر الأخبار. ثم أخذ غطاء. استلقى على الأريكة ونام.

حسدته ثانية. فيكفيه وضع رأسه على الوسادة لينزلق في نوم عميق. أما أنا فأحتاج دائما أن أغرقني بجرعة كبيرة من الإعلانات التليفزيونية. لدرجة أنني شعرت أنني في أحد الأيام قد آخذ بجدية مسألة عمل غسيل دم من السموم الإعلانية.

أعددت لنفسي قهوة ودخنت سيجارتين. ثم خرجت وتمشيت حتى وسط المدينة. تلكأت حتى امتلأت البارات والميادين والشوارع المحيطة بالبشر. وهنا بدأت البحث عن مورينا بوروميو.

وجدتها في ميدان لا أربي تدخن مع صديقتين لها، بجوار مدفأة في الساحة. كن يرتدين ملابسهن ويصففن شعورهن ويضعن مساحيق بنفس الأسلوب. وكانت المرشدة أكبرهن سنا، والأخرتين لم تتخطيان الثلاثين.

حين اقتربت نظرن نحوى بالابتسامة المتماثلة للعاهرات والتي تعني أنهن غير مرتبطات الليلة. حين تعرفت على مورينا تغير التعبير على وجهها. بدت سعيدة أنها رأتني. تخلصت من صديقتيها بتحية وداع واحتضنتني.

"فاتت مدة محدش بيشوفك".

"كنت باقضى أجازات اتراكمت".

"لازم كمان أشكرك أنك عرفت الزبالة ده قيمته".

"مش عارف انتي بتتكلمي عن إيه".

"ماشي، الرسالة وصلت" همست "شايفاك أخيرا لابس زيالشباب".

"شرب وعشا؟".

"وبعد العشا لو عاوز. بس كله بتمنه".

"في الآخر أنتي اخترتي انك تشتغلي عند قواد".

ارتشفت السبريتز "دي وكالة مش قواد. هما بياخدوا نسبة بس على المرافقة العلنية. أما فلوس اللعب فكلها بتاعتي".

تابعتها. كانت ماتزال تروق لي كالعادة حتى لو كان عامان من الكوكايين قد تركا آثارهما عليها. بدأت تلعب دورها. تركتها تقوم بذلك. كنت بحاجة للوقت كنت بحاجة لمزيد من الوقت لأفهم إذا كانت مازالت تعمل كمرشدة.

انتقلنا لبار آخر، حتى لم نعد راغبين في المزيد.

"هاخدك دلوقت لمحل جديد جامد فعلا... وغالي".

"كفاية إنه مايكونش من مطاعم الشمامين بتاعتك. مش عاوز موزعين يضنوني".

"أهدي. ده حتى شكله وهمي من كتر نضافة الناس اللي بتروحه، بس الأكل حلو أوى".

كان للمحل نفس طراز حانات وسط البلد القديمة، لكن مع كئوس كريستالية، أطقم فضية ذات ماركة، وأطباق تقدم بأناقة ورقى. أخذنا تلك الأصناف التي تثير ولع الحواس بنكهاتها وتروق لصحفيي الإعلانات المتخصصة، خلطة من النكهات المكلفة لدرجة أنه لا يمكن ألا تعجبك.

لكن السبب الحقيقى الذي جعلني غير راغب في العودة لهذا المكان كان سببا آخر. فالجميع يتحدثون بصوت منخفض للغاية، لا أحد يضحك بصوت، والمضيفات كن صامتات كالأشباح. هذا المكان يتردد عليه أموات مهذبون للغاية.

"بتشوفي لسة الظابط الأمور بتاعك؟".

"السنة اللي فاتت انفصل ودلوقتي بينام معايا بانتظام. كل يوم حد. بيجيب معاه علبة حلويات بعد ما يكون ودي ولاده للصلاة ومابيخلعش لحد بالليل متأخر".

"أنتي بقيتي صاحبته؟".

"حاجة زيكدة. بيعاملني أحسن، وبيحكي لي حاجات. زيالرجالة مش قادر يفهم أن مراته هجرته".

"وانتي مبسوطة من الطريقة اللي مشيت بها الأمور؟".

"مش باشتكي".

"بتكسبي كام في الشهر؟".

"تلات آلاف صافي. بس أنا مش متعودة اتكلم في ده مع الزباين".

"يمكن يكون من المفيد أنك تتكلمي في ده معايا".

ابتسمن. "كنت لسة باسأل نفسي امتي هاتقرر تقولي السبب الحقيقى في لم الشمل ده".

"تفتكرى ممكن أخلي الظابط بتاعك يشتغل لي شغلانة؟".

مرت بعود من المخبوزات على شفتيها قبل أن تقضم قضمة صغيرة. "عاوز تخلعني؟".

"لأ. انتي لازم تراقبيه وتنبهيني لو حب ينيكني".

"وهاكسب إيه من كدة؟".

"مرتب اتناشر شهر".

"والتلاتاشر والأربعتاشر هيعملوا إيه؟".

"40 ألف. ولا يورو زيادة".

"وهو هيقبض كام؟".

"أكتر منك طبعا بس ده اتفاق تاني".

حملقت في. "احتمال تكون هاتدفع لي قليل جدا".

"ماتشديش بزيادة. هو يعني مش الظابط الوحيد الفاسد في البلد".

"ماشي. هاكلمه".

قبضت على يدها. أردت أن أتأكد من إدراكها لخطورة كلماتي. "في الفيلم ده الخاينين بيموتوا"

"عاوز تخوفني؟".

"أنا بس باحذرك".

"الموضوع ليه علاقة بقصة سرقة المخدرات إياها؟".

"لأ" كذبت عليها.

"فاكر أن الظابط بتاعى كان بيتصنت على تليفونات زمايله في قسم تاني كان مشكوك انهم هُمّا اللي عملوها؟".

"يعني".

"كانوا هما فعلا، بس كل الشرايط بتاعة المكالمات اتمغنطت والتحقيق اتحفظ".

"الحاجات اللي بتحصل لما تكون المخابرات في الموضوع" فكرت، لكني قلت لها فقط "مش لازم تثقى زيادة في التكنولوجيا".

"الظابط قاللي أن رؤساؤه عمرهم ما كانوا ناويين يودوهم المحاكمة".

"أمال كانوا بيراقبوهم ليه؟".

سألته نفس السؤال بس، بس مافهمتش إجابته: "بيعهم ماكانش في الاتفاق، كان حماسة زايدة ولبس في التواصل".

بعدها و كأن شيئا لم يكن واصلت أدائها كامرأة ينبغي عليك أن تأخذها للفراش. وبعد برهة أدركت أنها سخيفة وبدأت في عمل العكس والتهكم على نفسها. غرقنا في الضحك مما جذب انتباه الجثث التي كانت تتناول الطعام بجوارنا.

"هاعزمك الليلة دي".

"مش عارف لو كنت فعلا عاوز".

"تعالي أعزمك على كاس وونشوف اللي هايحصل".

في وقت متأخر، في منزلها، وبينما كانت مورينا تعد لنفسها خطا من الكوكايين انشغلت بالتطلع للسيديهات، فقط كي أتجنب أن أبقى ناظرا لها ببلاهة. فوجئت حين وجدت سى دي لألبرتا أدامز، ولدت مع البلوز Born with the blues. بالتأكيد كانت هناك بالصدفة.

كان أدواردو "السمكة القط" فاسيا قد عرفني على ألبرتا. وظللت مسحورا بهذا الصوت للسيدة ذات السبع وسبعون عاما ذات الصوت المعجون بشكل مدهش.بموسيقى الجاز وبحيويتها المذهلة.

فبعد بداية مستقبلها المهني في ملهي بديترويت حتى نهاية أعوام الثلاثينات وهي تحمل على كتفيها عبء عدة زيجات فاشلة، قررت العودة لصالة التسجيلات لأربع مرات بينما كان من هم في مثل سنها ينشغلون بالتذمر من مشاكل التقدم في العمر.

أدخلت السى دي في المشغل واخترت أغنيتي المفضلة، Searchin'.

أغمضت عيني. و لم تأخذ ألبرتا وقتا طويلا لتقنعني أن ممارسة الحب الليلة ليست بالفكرة السيئة. خلعت معطفي وبدأت أفك رابطة العنق.

عدت إلى شقتي قبل الغداء بقليل. لم تكن مضيفتي من النوع الصباحى ولا تستيقظ قبل الحادية عشر، وقت الخروج لتناول مشروب صباحى.

"أنا مستعجل عشان أشوف الظابط الحلو بتاعك" قلت لها وأنا أطبع قبلة على وجنتها.

"حضر الفلوس وهاتشوفه الليلة".

كان ماكس يطهو وهو يرمقني بنظرة متسائلة. بينما قام بنيامين يتشممني بشكل فاضح.

ثم استدار للسمين "أحب أقول لك أنه نام مع الساحرة بتاعة بيضاء الثلوج".

"يع" علق ماكس وهو يقلب الأرز.

ثم أخذا يستهزءان بي بلا رحمة. بعد فترة مللت.

"احتمال كبير أقابل الظابط النهاردة".

تحولت ملامح روسيني للجدية. "ده خبر كويس".

أما ماكس الذاكرة فواصل الاستهزاء. "ممتاز. ده معناه أننا هنطنش انحرافاتك ونسمح لك تقعد معانا عالترابيزة".

كان الضابط الوسيم له اسم وكنية أيضا: أتيليو كاريني. أخذني من أمام

المحطة وأشار لي بالصمت. ثم صعد جسر عبر حى بأكمله ثم أخذ المخرج نحو الطريق الدائرى.

كان سنه بين الخامسة والأربعين والخمسين سنة، لياقته البدنية عالية، له وجه يقظ في رأس صلعاء تماما. لا يرتدي ملابس ذات ماركات شهيرة ولا ساعة أنيقة. كان يقود بسرعة متوسطة وكان لهذه الكيلومترات الزائدة هدف محدد أن يمنحني وقتا كي أفهم أي نوع من الضباط أتعامل معه حتى أتجنب أن أبدأ البداية الخاطئة. ترك لدي انطباع أنه ليس فاسدا بالمعني التقليدي للكلمة، لأنه لم يكن في جانب الأشرار. ولو قبل نقود في أي مرة فسيفعلها فقط وهو متأكد أنه لن يضر بالتحقيقات أو بزملاؤه. لم يكن من نوع الضباط الذي يتصرف بحماقة فقط ليخدم صديق أو يحتفظ بعشيقة.

وجدت نفسي أغير تماما الخطة التي وضعتها أمس مع أصدقائي. أوقف السيارة على الطريق السريع وأشار لي بالخروج. فتشني بحرص كي يجد أي أجهزة تصنت أو تسجيل.

"دلوقت دورى أنا" قلت حين أنهي تفتيشي.

"انت أكيد بتهرج" شخر.

"لو ماخلتنيش أفتش يبقى معني كدة انك لابس جهاز تصنت."

هز كتفيه بلا مبالاة ورفع ذراعيه. فتشته بنفس التدقيق الذي فتشني به ثم طلبت أن نترك هواتفنا المحمولة داخل السيارة ونبتعد عنها خمسين

قدم. كنت قد سمعت عن شخص وقع لأنه أجرى حوار قريب من مقدمة سيارة.

"ماشي خلينا نخش في المهم". قال وهو يشعل سيجارة.

"أنت عارف أنا مين؟".

"أنت فاكرني من الهواة؟".

"ماشي كنت بس عاوز اتأكد أني مش محتاج أعرفك بنفسي".

"لأ مافيش داعى. عاوز مني إيه؟".

"عاوز أنيك عصابة صربية بتشتغل في الشمال الشرقى في إيطاليا. الزعيم المحلي اسمه بافل ستويكوفيتش وبيشتغل مع واحدة ست يمكن ألمانية، اسمها جريتا جاردنر".

"في مجال شغلي كلمة.. أنيك.. ممكن يكون ليها معاني كتير".

"صح. بالنسبة لي احنا مش بنتكلم عن قتل أي حد بس عاوز أدمر المنظمة".

"طب وعاوز مني إيه؟".

"معلومات مفيدة".

"المفروض انت اللي تديني معلومات وأنا انقلها لزملا مضمونين".

"مش هنضيع وقت في كلام فاضي. بالنسبة لك هيكون في ميت

ألف يورو ولو يهمك كمان انك تقبض عليهم متلبسين بالبضاعة".

"اللي أراهن أنك أنت اللي هتكون مديهالهم ".

"بالضبط. كتيرة ومنورة وبتلزق... ومنها اللي ممكن يلزق حتى في صوابع اللي يلاقيها".

"يعني من الآخر أنت عاوز البوليس هو اللي يوفرهالك من السوق؟".

"خبطة عمرك: مستقبل وفلوس".

"الموضوع ممكن يكون يهمني".

"لكن؟".

"لكن لازم أكون متأكد أن مش اللي ورا الموضوع أن عصابة عاوزة تخلص من عصابة تانية".

"هما أذوا الست الغلط وده عمل كارثة. ده الموضوع".

"أنت بتستعبطني؟".

"عمرى ماكنت جد زيدلوقت".

قدم لي سيجارة".بمناسبة الستات الميت ألف المفروض تديهم لمورينا".

"ماشي. وبكدة ماحدش هيربط بينك وبين الموضوع".

"مش بس كدة. عاوزهم يفضلوا معاها".

"مش فاهم سبب الثقة دي".

"مورينا هاتغير حياتها. كفاية كوكايين وكفاية خرا".

"وهي عارفة؟".

"لسة. بس أنت دلوقت عرفت فابعد إيدك عنها".

عدنا للسيارة وبقينا صامتين حتى في رحلة العودة. وهكذا كان الشرطي الوسيم مرهقا من وحدته بعد الانفصال وقرر أن يجعل مورينا سيدة شريفة. ليست بالفكرة السيئة. فقد وصلت لسن الاعتزال. عامين آخرين وستنخفض المبالغ التي تدفع لها. ففي مجال اللهو يربح الأكثر شبابا.

أعادني للمحطة حيث كان ينتظرني أصدقائي في سيارة يابانية من الموديلات الغير معتادة. سوداء لها زجاج معتم. جلست على المقعد الخلفي وشمشمت. "كتيرة على أننا نعدي ومنتلاحظش".

لو كان لي أن أعود لحياتي القديمة فأول شيء سيكون هو أن أستعيد السكودا الفليتشيا الموجودة تحت رعاية اليد المحبة لباولو فالنتيني.

"هو شافها ومكانش في طريقة نوقفه بيها" أخبرني السمين. "ده حتى مثل أنه مصدق أنها عاملة 1200 ميل بس في العداد".

ربت بنيامينو على عجلة القيادة. "هي تشبه شوية العربيات الأمريكاني في الأربعينيات والخمسينيات".

"قصدك اللي كانوا بيلفوا في شيكاغو مليانين بالرجالة بتوع العصابات بالجزم الأبيض وأسود حاطين على حجرهم المسدس".

"العربيات بتاعة الأفلام لما كنت عيل. أفلام من الروائع زيلمسة شر وغابة الأسفلت. الأول علمني ازاى اتعامل مع العساكر والتاني أني ماقسمش البضاعة المسروقة".

"مش عاوزين تعرفوا الدنيا مشيت ازاى مع الظابط؟".

"كويسة" ردروسيني العجوز. "وإلا ماكنتش هاتهرج كدة على العربية".

نظرت خارج النافذة ولاحظت أننا لم نكن متجهين نحو شقة سكانفارلا. حين أدركت أننا دخلنا حيي القديم سألت إلى أين نتجه.

"دلوقت عندنا بيت بجد" رد ماكس. "ممكن تكلم رودي وتقول له يرجع جحره".

كانت مجموعة من العمارات الجديدة قد انشئت في ما كان من قبل منطقة ريفية حيث اعتدت أن أتجول بالدراجات مع جيش من أقراني.

كانت الشقة كبيرة وموثثة بشكل كامل. وكانت هناك حجرة لكل منا.

"حلوة" علقت.

"كان المفروض تتأجر إيجار أجانب لمديرين من شركة عالمية. كلفتنا قد فيلا في كوستا أزميرالدا في أغسطس".

ربت بنيامينو على الترولللي الممتليء بالنقود "ماتعملوش غاغة يا جماعة. في سني الواحد بيحتاج شوية راحة"

كان السمين جائعا واقترح طبقا من الباستا. صاحبناه وهو يطهوه في الفرن. وانسحب روسيني في غرفته ليتصل بسيلفي. وعاد وعلى وجهه علامات الانشغال.

"ماباحسش أني هادي وأنا بعيد عنها كدة" شرح وهو يلمس الأساور التي يرتديها في معصمه. "لو ماكنتش جنبها بالليل بتجيلها كوابيس وحبسها في البيت مش مفيد بالنسبة لها".

"بس دايما في حد بيحميها".

"اتنين بودي جارد موثوق فيهم جدا بيكونوا دايما معاها في أي حتة. ده بند تقيل جدا من الميزانية الأسرية".

"بتقضى الوقت ازاى دلوقت وهي مابترقصش؟".

"الصبح بتشتغل في مركز ضد العنف ضد النساء. وبتشوف دكتور نفسي مرة في الأسبوع وبعدين باخدها نتسوق وفي السهرة بنروح أحسن أماكن في البلد. بس المشكلة في الليل. في يوم من الأيام كان ده وقت "حياتها المفضل. دلوقتي بقى كابوس مابيخلصش".

قدم ماكس الأطباق وطلب مني فتح زجاجة النبيذ. بدا المهرب السابق غارقا فى أفكاره. أكل شوكتين من الباستا قبل أن يواصل" لأول مرة في حياتي أكون متأكد أن تصفية الحسابات مش هايفيدني بحاجة، قتل اللي قرر ياخدها المسلخ ده مش هيغير وضع سيلفي".

"لازم يكون عندك إيمان الوقت بيساعد".

لوح بيديه مستسلما. "ماعادتش خلاص الرقاصة اللي كنت عارفها. الخرا دول قتلوها في كورنس. وعشان كده هاقتلهم. عشان أخد بتار ست ماعادتش موجودة".

الأربعاء 4 مارس 2009

لقد تبدل الحال في أقسام الشرطة. لم يعد بإمكان شرطي أن يتسلل لقاعدة البيانات دون أن يترك أثرا. كان على كاريني أن يلجأ لرتبة أعلى منه كي يأخذ تصريحا ليحصل على معلومات عن الصرب. وبينما كنت أحمل تحت إبطي الملف النحيل تساءلت إذا كان قد ذكر اسمي. غالبا أستخدم الحجة المعتادة وهي وجود محقق خاص ما، لكن الأمر في ذلك الوقت لم يعد مهماعلى أي حال. فكل شخص كان سيلعب بطريقته ولن يلتزم أي أحد بالقواعد بشكل حرفي. في هذه اللعبة المهم هو ألا تبالغ حتى لاتؤذى نفسك بلا داعى.

كانت مورينا تشع سعادة ونحن نقوم بالمقايضة في مكتبة كبيرة في وسط البلد. نقود مقابل معلومات.

"الفلوس ريحتها حلوة أوى" غردت كطفلة صغيرة.

"افتكـرى اتفاقنـا" قلت وأنا أعطيهـا ورقة صغيرة بهـا رقم محمولي

الجديد. "خليكي لازقة ورا الظابط الأمور بتاعك ولو شكيتي أنه هاينيكني...".

"هارن الجرس. وضحت الفكرة".

"كويس".

أخرجت من معها سى دي ألبرتا أدامز. "جبتلك هدية".

"شكرا".

"يمكن لما تسمعها تفتكرني شوية"

"ماتبقيش رومانسية كدة".

"كنت أفضل أني أكون مع واحد زيك مايبضنيش. واحد مش مشغول أوى بالنهاردة وبكرة واللي هايحصل بعد كدة. بس الواحدة لازم تختار في الآخر مش كدة؟".

"أنت محتاجة واحد زيه. مافيش مستقبل مع واحد زيى".

خلعت قفازها ومسحت وجهي وعيناها تلمعان.

"كنت بافضلك أكتر وانتي الست اللي مالهاش حل وقلبها حجر. ده كان مغرى أكتر".

استدارت وهي تغمغم بسباب ما وابتعدت. بقيت مندهشا. لم يخطر ببالي أنني أهنتها، لكنني سأحرص على عدم قص تفاصيل ما حدث

لرفاقي. فمورينا لا تثير تعاطفهم وبالطبع سيجدوا حجة مناسبة ليرددوا أنني لا أفهم شيئا عن النساء.

كانت تمطر، كالعادة. منذ زمن طويل لم نشهد شتاء كهذا. حتى أنها أثلجت أيضا. فتحت المظلة حتى أصل لمحطة الترام. كان على أن أنزل بعد ثلاث محطات لكنني ركبت كي أؤمّن عدم مراقبتي، لم أرغب في أن أكون أنا من يفسد مخبأنا الآمن. في نفس اليوم ذهب روسيني ليشترى "مدفع" من جزار ورث من والده بجانب تلك المهنة نشاط تجارى آخر وهو "تموين" اللصوص المسلحين. أما واجب ماكس فكان الحصول على هواتف محمولة مستنسخة وأجهزة ألكترونية شيطانية أخرى. تفتيش واحد كان سيكون كافيا لسجننا سنوات عديدة.

نزلت من الترام بعد محطة واحدة، أخذت تاكسى ثم أتوبيس. وتمشيت آخر جزء من الشارع.

نشر بنيامينو قطع المسدس على منضدة الصالة. كانت ينظف ويزيت الحديد بعناية فائقة.

"شكلها أنتيكة" سخرت.

"ماتغلطش. دول اتنين كولت. 45 جامدين ومحترمين. من بتوع سنة 1911 اللي بيعجبوا الذواقة".

"عاشق المسدسات كالعادة" قهقه ماكس. "استخدمه بروس ويلز في آخر الرجال الصامدين. غصب عليَّ أشوفه من كام سنة مرتين على دي. في. دي".

"طيب يبقى احنا في الأمان. بروس بيكسب دايما".

"لازم تثق في كده يا بني" رد روسيني منزعجا.

سحبت الملف من الحقيبة ووضعته بجوار صندوق ذخيرة. "لما تخلص اللعب بتاعتك نبص بصة على ده".

"مسافة ما اجمّعه. أنا ممكن أعمله وأنا مغمض".

أقل من دقيقتين. حركات واثقة، دقيقة بالميللي متر. روسيني المسلح يبعث على ثقة الأصدقاء ورعب الأعداء. كانت دعاباتي ترمي فقط لإخفاء توتري. فالأسلحة لا تروق لي، لكنني أعلم أنني أحتاج لها سواء أنا أو ماكس وكنّا راضون أن نترك لروسيني التعامل معها وتلويث يديه.

جذب السمين الرباط المطاطي وفتح الملف. كانت الصفحة الأولي فارغة عدا سطر واحد عن جريتا جاردنر: "مجهولة".

أما بالنسبة لبافل ستويكوفيتش فكانت هناك وفرة في المعلومات رغم أن أسماء الضباط كانت مغطاة بحبر أسود كثيف. ذكرت البيانات الشخصية أنه ولد في كلادوفو، صربيا الشرقية، في مايو 1950. عام 1972 تزوج في بلجراد من إيفانا، في العام التالي ولد براتسلاف وولدت ابنته سونيا في الثمانينيات. في هذا العهد كان بافل مسئولا كبيرا في الـ UDBA المخابرات اليوغوسلافية. وحينما انحلت هذه مع الحرب الأهلية تبوأ هو منصب لا يقل في مكانته بمكتب وزارة الدفاع الصربية.

في منتصف التسعينات أصبح مستشارا لأسرة إجرامية في العاصمة

دخلت في صدام مع أسرة زيليكو رازانتوفيتش، والشهير بأركان نمر البلقان وتعرضت فيه للهلاك. نجا بافل بأعجوبة من ذبح القيادات وهرب من الجنود واختبأ، ليظهر في إيطاليا في ربيع عام 2000، بعد ذبح أركان بعدة أشهر في صالة فندق الأنتركونتننتال في بلجراد.

أُعطي الفيزا لدخول إيطاليا كإجراء عاجل بتوصية من مسؤول في وزارة الخارجية تم شطب اسمه بالأسود. ربما كمقابل لمعلومات وفرها بشكل سري لمحققي محكمة هيج الذين كانوا يجمعون الأدلة لإدانة سلوبودان ميلوسوفيتش، المتهم بارتكاب جرائم ضد الإنسانية.

في عام 2001، وفور إلقاء القبض على رئيسه السابق، أسس ستويكوفيتش سوق البلقان التي كان مقرها الرئيسي في تريفيزو، شركة الاستيراد والتصدير التي أدارها اثنان فقط من الموظفين: بوزيدار دينيش وفلادان نينكوفيتش.

"تنتن وتنتون" مزحت. "الوغد عامل حتى تأمين صحي لحراسه".

دق ماكس بأصبعه على ملف آخر. "دي ملحوظة من البوليس في ترفيزو بتقول أن سي بافل راجل شريف ومش مناسب تطلعوا عينه".

أطفأت ما تبقى من سيجارتي في المطفأة "معني كدة أن تبادل المنافع استمر وأنه مش راجل عصابات وبس".

"طب لو كدة ليه سايبينا نفشخه دلوقت؟". سأل روسيني.

"صعب نفهمها" رد السمين. "يمكن ما عادش مهم كمرشد خلاص،

ويمكن الضباط في بادوا ما يهمهمش الصفقات اللي بينه وبين الظباط زمايلهم".

كانت لدي الرغبة في الشرب لكنني نظرت للساعة وقررت الصمود. "دلوقت عرفنا حاجات كتير عن سي بافل. بس متهيألي مش هتكون مفيدة خالص في التخطيط لاستراتيجية دقيقة".

"الحقيقة أننا عندنا نقص في الأفكار" اعترف السمين.

"يا نخش بدماغنا ونشوف إيه اللي هايحصل يا نستني نعرف أكتر".

رن روسيني أساوره. "كل أما هايمر وقت أكتر كل ما هانكون متشافين أكتر. وساعتها هما اللي هايهاجمونا".

"الخطوة الأولي؟".

فكر السمين في الأمر خلال فترة أخذه لنفس طويل من سيجارته ونظر إلى. "الدور عليك. روح أرغي شوية مع أربن الشاباني واحنا نغطي ضهرك".

في تمام الساعة العاشرة فتحت باب البار فغمرتني موجة من الحرارة ودخان السجائر. في هذا المحل المملوك رسميا لأختين مغربيتين، لا يُحترم القانون على أساس افتراض أن الذين يغامرون بالإصابة بالسرطان تلك أقل مخاطرهم شأنا. نظرت حولي. كانت الموائد مكتظة بممثلي كل فروع الإجرام من أحط الأنواع.

كانت الأختان خلف البنك تثرثران في ود مع بعض الزبائن الغارقين

في الجعة والخبز، وكما لو كانوا يتبعون قواعد السيناريو لم يرفع أحدهم عينه نحوي. جلست على المائدة الوحيدة الفارغة. ونظرا لموقعها المتميز لابد أنها كانت التي اعتاد الشاباني الجلوس عليها، الذي لم يكن هناك أي أثر له. كي لا أنهار من حرارة الجو خلعت معطفي واسترحت. بعدها بدقائق جاءت الأخت الصغرى من المالكتين المزعومتين لتسألني عن طلبي، فطلبت قهوة.

كنت أعلم أن أربن موجود في خلفية المحل يراقبني، مستعدا للتسلل من الباب الخلفي لو ساءت الأمور. سحبتُ من جيبي جريدة محلية وشرعت في القراءة، ممثلا اهتمامي بالجدال الدائر داخل أقلية يمين الوسط الذين لم ينجحوا في العثور على مرشح لمكتب العمدة.

أما الحقيقة، فهي أنني كنت أحاول الظهور بمظهر المسترخي كي أقهر شكوك الكوسوفي. فرجال المافيا متشككون بطبيعة الحال.. فهم ينهضون صباحا ويفكرون كيف يخوزقون جارهم وهم في غاية الحذر حرصا على أن يقضوا على أي احتمال قد يوقعهم في فخ ولو صغير: فأي خداع يحمل خطر انخفاض القيمة داخل الأسرة. لذا يحيون حياة صعبة، لا توجد فيها فرصة للاسترخاء: فالأخطار الداخلية أسهل من تلك التي تأتي من الأعداء الخارجيين، فربما في يوم ما وبدون قصد يقول الشخص كلمة خطأ في التوقيت الخطأ أو ربما لا يقوم بالأعمال كما ينبغي. في هذه اللحظة تنشط آلية بطيئة تنفيه للأبد في مستويات أدنى من المنظمة. يحدث هذا أيضا في أي مؤسسة، وفي هذه الحالة إذا كنت في سن يسمح بذلك فقد تستقيل، لكن هذا الفعل لا وجود له في قاموس المافيا.

ولم يكن أربن الكوسوفي يجادل في هذا المبدأ، بل كان مولعا به. فكما خمن الضباط، كان طموحا ويريد الصعود بسرعة لقمة المنظمة. وكان هدفه الذي استنتجناه اعتمادا على المكالمات التي تم التنصت عليها والتي استطعنا قراءتها في مكتب المحامي كريشونيا، هو الحصول على منصب فلوريان تودا الذي كان على رأس فرع المنظمة في بادوا. وقد نجح في ذلك جزئيا لأن فلوريان ألقى القبض عليه أثناء الغارة التي "قضت" على تجارة الكوكايين الذي يمون إحدي الدوائر العديدة في بادوا المرفهة. لكن في المافيا يمكن للزعماء أن يستمروا في إدارة الأمور حتى من داخل الزنزانة وكان على أربن أن يرضى بالتباهي بحصوله على نفس مميزات تودا.

كانت الاستراتيجية التنظيمية للكوسوفيين هي استيعاب الأشكال التنظيمية الموجودة بالفعل وإدارتها من وراء الكواليس. ففي بادوا سيطروا على المحال التي تديرها العصابات المغربية، مثل ذلك البار الذي كنت فيه تلك الليلة. هذه العصابات التي شكلت الجيل الأول من العصابات الأجنبية المنظمة في بادوا تحولت لجيش من التابعين بسبب انقساماتها الداخلية الكثيرة وقلة لجوئها للمواجهات المسلحة.

في اليوم السابق، وتحت أروقة طريق سان فرانسيسكو، قمنا بمنح ورقتين نقديتين لمرشد التونسي الذي كان ممون ماكس المعتمد للحشيش. والذي شرح لنا أن المغاربة والجزائريين لم يكونوا راضين عن الوضع وكانوا يدبرون شيئا مجنونا وهو العمل لحسابهم. وكان أحد دوافع هذا الخلاف هو أسلوب القبضة الدامية لأربن الشاباني التي تجعل معاونيه يضربون

بشدة موزعي الشوارع عقابا على أخطاء تافهة.

كان الكوسوفاري يتطابق تماما مع نموذج من رجال المافيا سنحت لنا الفرصة بالتعرف عليه أثناء وجودنا بالسجون الوطنية. كان أكثر نوع يمكن توقعه نظرا لغبائه رغم اعتقاده أنه محتال جبار. ومع هذه الأشكال يمكننا دائما أن نتعامل بكفاءة، ولهذا رتبنا تلك المقابلة من خلال مرشد.

"كنا بنفكر ندخلك في شغلانة كدة" شرح السمين.

نظر لنا التونسي بتشكك. عينان داكنتان ويقظتان تطلان من عمق غطاء الرأس الضخم للجاكت الذي كان يرتديه. من الواضح أن المالك الأصلي لهذا الجاكت كان مقاسه ثلاثة أضعاف مقاس مرشد.

"سواء كنتوا في ورطة ولا بتخططوا لحاجة. أنا ماعدش خلاص ليا أي لازمة. مش زي زمان لما كان الكل بيتعامل مع مرشد باحترام...".

رفع ماكس يده "وفر علينا قصة حياتك الحزينة كمهرب. عاوزين نوصل لأربن".

"عاوزين تحتكوا بيه؟ ناسه هايدبحوني".

"لأ. عاوزين نعرض عليه شغلانة وأنت هاتاخد في جيبك ألف يورو".

فرك مرشد يديه بشدة. كان مازال قلقا، لكن المبلغ كان مغريا. "المفروض أعمل إيه؟".

"روحله وقوله إن في حد أنت بتعرفه وبتثق فيه.."

"ده اللي هو أنت؟".

أشار السمين نحوي.

"أنا ماعرفوش كويس. عاوز ألف وميتين".

قام بنيامينو بإشارة تنم عن انزعاجه، وقد نفد صبره من المقاطعة. "انت بتتكلم كتير وبتسمع قليل".

"إيه، بالراحة، هو الواحد ماعادش يعرف يعمل اتفاق؟ صحيح الأصول بتاعت أيام زمان ماعادتش موجودة".

"ماشي. ألف وميتين" تدخل ماكس. "بس صاحبي عنده حق. اخرس خالص واسمع".

مثل مرشد أنه يغلق فمه بسوستة خفية.

"لازم تروح لأربن وتقوله إن الراجل اللي أنت عارفه ده. ماركو بيوراتي اداك خمستلاف يورو تشتري له بيهم هيروين وكوكايين من تجار مختلفين بس عشان يعرف مدي جودتها. عشان بيخطط يشتري 2 كيلو بضاعة".

أومأ الموزع رأسه "وكده هيبقى عاوز يتعرف عالمشتري بنفسه".

"شكلك بتفهم بسرعة".

"في ناس أحسن من أربن في البلد".

"قصدك أكرم في تعاملهم معاك منه؟ بس أنا عاوز أتعامل معاه هو بس".

مد مرشد يده، فاتحا كفه، منتظرا النقود "ماشي بس ماتجوش بقى تشكولي لو الشاباني قطعكوا".

منحته النقود في هدوء وكتبت رقم تليفون على تذكرة أتوبيس مستعملة. "قول للكوسوفي إني مابروحش غير أماكن عامة".

فرد بنيامينو معطفه عارضا عليه المسدسين المعلقين تحت إبطه. "أنا عارف إن في أزمة دلوقت وخمستلاف مبلغ كبير، بس لو خميتنا أو قلت حاجة غلط هالاقيك واقتلك".

استدار مرشد نحو السمين. "أنا عمري سرقتك أو خميتك يا صاحبي؟".

"لأ، وعشان كدة دفعنالك مقدم. لكن لحد دلوقت أنا ماعملتش معاك شغلانة تزيد عن ميتين أو تلتميت يورو ويمكن تفكر أننا عبط".

فرد التونسي ذراعيه في بؤس.

"إيه العالم بقى عامل كدة ليه؟ ماعدتش تعرف تعمل اتفاق، يضربوك ويهددوك بالقتل عالفاضي. عارفين دي غلطة مين؟ غلطتكو أنتوا. لو انتوا يا طلاينة مافتحتوش حدودكوا الشرقية ماكناش وصلنا للحال ده. الناس دي وحشة وبتبوظ كل حاجة، بس انتوا كنتوا عاوزينهم بأي تمن".

"ماتتكلمش مع الكوسوفي غير عني. صحابي أنت عمرك ماشفتهم".

"تعرفوا أنكم معقدين أوي؟ ماعرفش إذا كنت هاحب اشتغل معاكوا" ثم ابتعد وهو يغمغم ويلوح بيديه.

"كان لازم تهدده؟" سألت روسيني ونحن عائدان بالسيارة.

"يمكن لأ بس هو مجرم فاشل وعايش في الماضي".

"وكمان موزع" فكرت في كيف كان الهجام السابق يكره هذا الصنف. ومع ذلك قام مرشد بفعل ما كلف به وقبض ثمنه واتصل بي بعد ساعتين. تم تحديد الموعد مع أربن في صباح اليوم التالي في البار في ميدان ماتزيني الذي انتظرت فيه أن يظهر جلالة الشاباني ليشرفني بمقابلته لي.

رفعت يدي مستدعيا إحدي المغربيات التي خرجت ببطء من خلف البنك بتذمر وأتت لطاولتي. أشرت للباب في الخلف والذي علقت عليه لافتة قديمة تشير إلى أنه غير مسموح للزبائن الدخول منه.

"أنا عارف إن أربن موجود جوا. قولي له إنه دقيقتين وهامشي".

"ليه ماتروحش الحمام وتعمل بي بي؟ يمكن لما تخرج تلاقي حد مستنيك".

كان الكوسوفي يريد التأكد من أنني لا أحمل جهاز تنصت. لكن دخول هذا الحمام قد يعني أيضا طعنة أو رصاصة، فهو قد تذكر بالتأكيد الحكم المعلق فوق رأسي بالإعدام منذ اللحظة التي ذكر له فيها التونسي اسمي.

هززت رأسي بالنفي. "دقيقتين وهامشي" كررت بحسم.

اختفت السيدة خلف الباب، فقمت وخلعت السترة وبقيت بالقميص، وخلعت بطارية المحمول. كان يمكن أن أكون قد أخفيت مسدسا في القميص أيضا، لكنها بدت علامة على حسن نيتي، ومن الواضح أن أربن قدرها، وقرر أخيرا أن يظهر لي.

وجدت نفسي أمام شخص مختلف تماما عن ذلك الموجود في صور المراقبة، فلم يعد شعره حليقا كما جرت العادة لدي الجنود السابقين في جيش تحرير كوسوفو، فشعره حاليا طويل ويصل حتى كتفيه ويبدو أصغر من ستة وثلاثين عاما كما كتب في البيانات الشخصية التي قدمها محاميه. له عينان قريبتان الواحدة من الأخرى ويفصل بينهما أنف دقيق لكن بارز، تمنحه كلها مظهرا أقل ذكاء، لكن من طريقته في النظر لي فهمت فورا أنني أمام شخص لا ينبغي الاستهانة به.

لمحت لمعة دهاء في عينيه، أوضحتْ لي أن أربن نال منصبه كنائب بذراعه، سواء في كوسوفو في الحرب ضد الصرب، أو من ثم في "الشركة" مع الأسرة. نوع محتال وعنيف. كان ينبغي على أن أقنعه بأن بإمكانه أن يقضي على في أي لحظة.

مد لي يده مصافحا بابتسامة عريضة. استدار نحو البنك وطلب بيرة، فوصلت في غمضة عين.

"مرشد قاللي إنك عاوز تشتري بضاعة معينة" تحدث بنغمة من يفتح حوار.

"لأ" اختصرت. "دي كانت حجة عشان أقابلك".

ضم قبضته. "لو عاوز تنصب ده المكان الغلط".

"ما قدرش أصلا. أنا عاوز أعرض عليك شغلانة تانية".

"سامعك".

"فاتيون بايتيشي. أنا وأصحابي مالناش دخل في موته".

تغير تعبير وجهه. لقد فاجأته، فحتى هذه اللحظة كان متصورا أن الصدفة وغبائي هما ما قادني إليه. كانت خطته هي أن يخدعني ويوهمني أنه سيبيع لي المخدرات ثم يخطفني أثناء عملية الاستلام فيسرق نقودي ويعذبني ليجعلني أعترف بالمكان الذي يختبيء فيه ماكس وبنيامينو ثم يتخلص مني.

"وجاي تحكي لي ليه؟".

"عشان عارفين أنك بتدور علينا. وأكيد مش عشان تعزمنا عالشرب".

شعر بوطأة الأمر، فأنا أعرف الكثير. أراد أن يفهم مني أكثر. "أنا مش شايف مصلحة في الكلام ده".

"بالعكس في مصلحة هاتغير حياتك كلها. احنا بنعرض عليك مش أقل من راس اللي دبرها. وده هايكبرك في عين الريس والعيلة. ويمكن تكون دي الفرصة اللي تخليك تاخد مكان فلوريان تودا. وبعدين لو قلت للعيلة أننا مالناش دخل بالموضوع هنخليك غني".

هز كتفيه مدعيا أنه غير مهتم بالأمر. كان يحتاج لوقت ليفكر في الأمر مليا وبحرص. "مش فاهم يعني انت مهتم تشتري البضاعة دي ولا لأ".

"يبقى ماعندناش كلام تاني نقوله".

نهضت. "فكر في الموضوع يا أربن. الفرص اللي من النوع ده بتحصل مرة واحدة في العمر" قلت، تاركا على المائدة الملطخة قطعة ورق صغيرة عليها رقم هاتف.

لم يحرك عضلة واحدة من جسده، واقتصر على الحملقة في كما لو كنت قطعة أثاث. ارتديت السترة والمعطف وخرجت. عددت خمسين خطوة، توقفت، أشعلت سيجارة ونظرت خلفي بشكل مستتر. كما توقعت، أرسل أربن خلفي أحد بلطجيته المغاربة ليتتبعني.

عبرت الميدان واتجهت نحو جسر مولينو قبل أن أدخل في شبكة الحواري القديمة. كان على الرجل أن يلاحق سرعتي ويبقى على المسافة بيننا، وبينما هو منشغل بألا يدعني أغيب عن نظره لم يلحظ روسيني الذي كان ينتظره خلف أحد أعمدة البواكي. ضربه روسيني على وجهه بظهر المسدس مرتين، فسقط الرجل على الأرض بلا حراك. نهاية المراقبة.

"الأمور مشيت ازاي؟" سألني بنيامينو حين لحق بي.

"في رأيي هو بلع الطعم".

"وطمَعه هايفشخه".

"نتمني".

قابلنا ماكس الذاكرة الذي كان ينتظرنا على ناصية شارع في حي آخر. كان محملا بالمشتريات.

"لي نفس أطبخ" شرح لنا.

عدنا إلى ملجئنا المرفه. مكث السمين في المطبخ، وأسرع بنيامينو لغرفته ليجري إحدي تلك المكالمات الطويلة المروعة مع سيلفي، أما أنا فاستلقيت أمام التلفيزيون وبدأت ألعب بالريموت. كانت هناك قناة يبدو أنها متخصصة في الموسيقى تعرض برنامجا مملا عن إدمانات إيمي واينهاوس الحديثة. كنت أفضل أن استمع لإحدي أغنياتها، فلهذه السيدة صوت يروق لي للغاية، وإعادة غنائها لأغنية back to black، غير عادية.

انتابتني الرغبة في الاستماع لموسيقى بلوز جيدة فاتصلت بأدواردو "السمكة القط" فاسيو. فهو يعرف كل ما يمكن معرفته عن الموسيقى، حتى عن موسيقى الشيطان نفسه.

"الليلة دي كلاوديو بيرتولين هايعزف في بار تبيذ في كاستيلفرانكو فينيتو ومن المعلومات اللي عندي أنه احتمال يسجل الحفلة دي".

"يبقى ما ينفعش تفوتني دي".

"هتكون غلطة عمرك".

كان ماكس يحشو خنزيرا مشويا كبيرا. "بعد فترة طويلة من الصيام أخيرا هاسمع موسيقى حلوة".

رفع السمين رأسه من اللحم الذي كان في يديه. "قلت ده لبنيامينو؟".

"في حاجة تانية في برنامجنا؟".

"أنا عارف أنه كان عاوز يبص على المكتب اللي في بيت ستويكوفيتش".

"مافيش داعي نكون تلاتة. أنا النهاردة لازم أعدي البلاعة بتاعة أربن دي".

"عندك حق".

راقبته لبرهة. منذ ذلك اليوم الذي عدنا فيه من لوجانو لم نتحدث أبدا عن الماضي.

"ما عادتش عندي الجرأة حتى عشان أروح أشوف إيه اللي حل محل الوجار".

"دلوقتي مافيش. لفترة كان محل سندويتشات عادي وبعدين بار سوشي بس مامشيش كويس".

أشرق وجهي. "هو معروض للبيع؟"

"شفت إعلان في الجرايد من يومين".

"هيكون شيء لطيف إننا نشتريه ونبتدي من الأول. بعد ما تخلص القصة الزفت دي قصدي".

كشّر ماكس. "ما عرفش إذا كان ده هيناسبني يا ماكس".

"قصدك إيه؟".

"أعتقد أنا هافضل في فراتا. ده المكان المناسب بالنسبة لي. في هناك ناس كتير حلوين وفي إحساس بالمجتمع اختفي من أي حتة دلوقت. للمرة الأولي باحس أن حواليا ناس حقيقيين وطبيعيين، أحس بالعطف وبالصداقة... وكمان هايبقى مكان انطلاق لمشاريع كويسة".

"عاوز ترجع تشتغل في السياسة؟".

ابتسم "عاوز أحاول للمرة الألف. هما بيجهزوا الخبطة الكبيرة الأخيرة للشمال الشرقي: سلسلة من أعمال البنية التحتية اللي مالهاش لازمة اللي هاتوجه الضربة القاضية للبلاد دي. مش حاسس إني ممكن أقعد ساكت وأتفرج".

"باعترفلك إني ماتوقعتش كدة".

تنهد "كنت فاكر أن كل حاجة هاترجع زي الأول؟".

"لأ طبعا الفكرة دي ماخطرتش حتى على بالي. ببساطة ماكنتش مستعد لنهاية مشاريعنا المشتركة، وأني أقبل أن حياتنا هاتنفصل عن بعضها، أيا ما كان اللي هايحصل".

"احنا أُجبرنا إننا نهرب من يوم للتاني. إحنا خسرنا كل حاجة كانت عندنا. الأمور مشيت كدة".

"أنا تايه يا ماكس".

فتح السمين الثلاجة ونزع سدادة زجاجة نبيذ بروسيكو. "بوليتشيني يا سيدي. أنت محتاج حاجة ترفع معنوياتك".

"في ست كمان في فرات؟".

"اسمها إيرما. وصلت يوم مع ناس أصحابي ومامشيتش من ساعتها".

"واحشاك؟".

"جدا".

لم أر السمين أبدا منشغلا في مكالمات هاتفية. "طب ليه عمرك ما بتتصل بيها؟".

"قلت لها إني هارجع".

"ساعات ده مابيكونش كفاية".

"ماعنديش أي رغبة أني ألخبط القصص الخرا دي بالحاجات الحلوة. فاهم قصدي إيه؟".

حب ماكس. حب رجل العصابات.

وحب التمساح؟

"متهيألي" أجبت بعد برهة. "حتى لو عمري ما كنت باعمل التفرقة دي".

"بس أنت مش كل الصواميل عندك مظبوطة".

"وأنت بقى لأ.."

أشار إلى الأرض" أنا الوحيد العاقل هنا".

شربت ثلاثة كئوس متتالية، ثم قمت واحتضنت ماكس. "معني كدة أني هازورك ساعات"

"طالما مش هاتشوه سمعتي؟"

تهيأت للخروج. "تسلفني العربية؟".

ألقى لي ماكس بالمفاتيح "خد بالك دي مش بتاعتي. خد بالك منها".

عبرت بجوار غرفة روسيني. كان الباب مفتوحا فتحة بسيطة، ورأيته ينظر خارج النافذة ويداه مفرودتان على الزجاج، فقررت أنها ليست اللحظة المناسبة لمقاطعته وذهبت مغلقا الباب خلفي ببطء.

ما إن صعدت للسيارة التي كانت سيارة رياضية كورية صغيرة ملكا لإيرما الغامضة قطعا، فتحت لوحة القيادة لأكتشف المزيد عنها، لكنني بلفتة حادة أغلقتها، فدسُّ أنفي في أمور ماكس العاطفية سيكون أمرا زائدا عن الحد.

اتجهت نحو الوجار. دخنت بضعة سجائر وتوقفت أمام لافتة "للبيع" خضراء عليها اسم وعنوان وكالة سمسرة عقارات. يا للحزن: مغلق ومظلم ومهجور. اتصلت بسيلفي وقلت لها مكاني.

"أنت حاضن قزازة الكالفادوس كالعادة دلوقت؟".

"دلوقت باشرب بالليل بس، يعني لو مش هاتحسبي تلاتة بروسيكو ورا بعض"

"اتصلت بيا ليه يا ماركو؟".

"عشان خطر في بالي أني هافضل وحيد. ولما تخلص القصة دي وأقدر أرجع أعيش حياتي لازم أعيد حساباتي مع الوحدة".

"أتمنى أنك ماتكونش بتعاملني على أني الكتف اللي هاتسند عليه عشان تبكي بدموع التماسيح"

"لأ طبعا" كذبت.

"عشان خلاص ما عدتش مستحملة الرجالة اللي بيدوسوا عالكل زي الأفيال وهي بتجري، ولما يوصلوا الخمسين يطلعوا عين الواحدة بهمومهم".

"فيرنا أرجوكي ماتفكريش أني ممكن أكون وصلت للمستوى ده".

"يا ريت. بس أنت برضو ماجاوبتش سؤالي: اتصلت بيًا ليه؟".

"عشان أقولك أنه من دواعي سروري أني أدور على مكان لطيف للسكن ممكن أم جميلة جدا تيجي تقضي فيه ساعات ممتعة مع المذكور".

"والأم دي هي أنا؟".

"آه".

"ماشي يبقى لازم تمشي في الطريق السليم وتطلب إيدي".

"هي دي حاجة بيعملها اللي بيحبوا بعض؟".

"بالذات دي. ولازم كمان توعدني أنك هاتكون مخلص ليا".

"بس انتي مش مخلصة لجوزك".

"أنا محتاجة لراجلين، لكن أنت مش محتاج لستين. وبعدين هو أنا مش مكفياك؟ عشان لو مش كدة ممكن نقفل المكالمة دي حالا".

"ڤيرنا، ممكن أسألك سؤال إنتي بتتكلمي جد؟".

"أه. مش عاوزة أتشارك فيك مع أي واحدة تانية ولا عاوزة ألاقي نفسي مع واحد يقعد يعيط لي زي رجالة كتير في سنك".

"ماشي هاحاول".

"لأ. لازم تكون متأكد. أبقى أشوفك لما تبقى كدة".

وأغلقت الخط. كأنها قوة من قوى الطبيعة.

كنت بالفعل أحبها.. وأيضا.. وأيضا كانت تروق لي، فمجرد التفكير فيها كان يثيرني. كانت لدي فعلا رغبة في أن أكون بصحبة امرأة ولو استطعت لاتصلت بمورينا. على الأقل كانت لتمثل أنها تسمعني.

لكن بعد ساعة ظهر ضابطها الوسيم.

"أخبار؟".

"ما فيش".

"ممكن تشرحلي إيه اللي خلاك تتهبب تروح البار اللي بيستخدمه الكوسوفيين من البيخا كواجهة؟ مش فاهم ده دخله إيه باتفاقنا".

كان ينبغي على أن أدرك أن المكان مراقب.

"ها تكتشف قريب".

"ماتحاولش تهديني بالكلام الفارغ ده يا بيوراتي، لأن لو أي حد عنده مصلحة ياخد مكان الصرب فـ همّا الكوسوفين دول".

"خطتي بتتضمن برضو فشخ أربن الشاباني، بس لازم أتأكد أن ماحدش فيهم في ديلي".

أعاد حساباته مع الخبر الجديد. الفريسة أصبحت أكبر. "اتطمن. ماعندناش غير كاميرا واحدة بتصور البار".

"أنا متطمن بس لازم أنت كمان تتطمن".

نفخ متشككا.

"يا ترى لازم أفكرك أنا ممكن أعمل فيك إيه لو فكرت تلعب بديلك معايا؟".

يا للقرف! كل هذه القصة مبنية على قصر وهمي من التهديد والخداع. "أنت كدة بتخنقني".

"ماشي يا حلو. هدي نفسك. أنت اللي جيت تدور على".

"أه بس مش عشان تخنقني".

"اللي أنا عارفه أنك لازم تعود نفسك أني باعمل اللي أنا عاوزه عشان أنا الشخص الشريف هنا".

أغلقت الخط. يا له من شرطي قذر.

المكالمة الهاتفية الوحيدة التي كنت أنتظرها لم تأتِ. ربما أخطأنا في تقييم أربن. ربما في مواجهة قرار صعب كهذا فضَّل وضع الأمور كلها بين يدي الأسرة.

يوم آخر من الخراء. لم يمر شيء كما ينبغي. دارت في رأسي كلمات ماكس وفيرنا، وبين ساقيَّ انتابتني رغبةٌ ملحةٌ في المتعة والحنان. البلوز فقط كان يمكنها أن تنقذني، لكن الوقت كان مبكرا جدا على الذهاب لكاسلفرانكو. ذهبت لبار على أطراف المدينة اعتاد الناس أن يذهبوا إليه حين يرغبون في الصحبة، دون أن يكونوا مجبرين على الدفع. كان له نفس الأثاث، لكن الآن خلف البنك كانت هناك ثلاثة شباب صينيين، رجلان وامرأة، تأمرهم أمٌّ صينيةٌ قاسية، كما تغيرت نوعية الزبائن.

في أعماقي كنت راضيا، فبالتأكيد كنت سأنتهي متورطا في قضاء ليلة واحدة قذرة تكفي لتجعلني في وضع أسوأ. تذكرت أنني لم أكن قد أكلت بعد فطلبت ساندويتشا وجعة، ثم شايا. كانت المائدة بجوار الزجاج، أمام محطة الأتوبيس بالضبط، وأمضيت عدة ساعات أتجسس على الوجوه الجادة والمهمومة للركاب. رأيت كذلك امرأتين يمكنني الوقوع في حبهما بسهولة.

"كله تمام؟" سألتني مالكة المحل بإيطالية متقطعة حينما ذهبت لأدفع الحساب في الخزينة.

"أه، بس مش هاقدر أكون زبون دايم عندك في المحل. الفرجة على الأتوبيسات المعدِّية حاجة مزعجة وبصراحة مش هاتفيدني في النقطة دي من حياتي".

لم تتوقف لحظة عن الابتسام بينما أتكلم، وأخذت تهز رأسها في استلام وصبر. كل ما كانت تنتظره مني أن أجيب بنعم أو لا. لكنها لم تفهم كلمة واحدة مما قلت.

خلال إقامتي في سويسرا نجحوا في إقامة عدد كبير من الطرق والطرق الدائرية والتقاطعات لتتيح انتقال الشاحنات المحملة بالبضائع بشكل أسرع. والآن قل الازدحام بسبب الكساد إلا أنني لم أوفر أكثر من عشر دقائق عما اعتدت عليه من قبل: كان هذا وقت عودة الناس لمنازلهم وبالتالي كانت السيارات تتحرك في كل مكان.

كانت أول مقطوعة يعزفها كلاوديو برتولين هي The blues is a lonely road. أما المقطوعة الثانية Have been down to hell فلم أتمكن من سماعها كاملة لأن هاتفي المحمول اهتز بشكل مزعج داخل جيبي.

كان أربن. خرجت من المحل مستاء. بدا أن الوغد قد فعل ذلك عن عمد.

"ممكن نتكلم؟" قال.

"ماشي. نتقابل بكرة الصبح الساعة حدعشر في المركز التجاري لشارع فينيتسيا. في الدور الأرضى في البار".

"كنت بافكر في مكان أهدا من كدة".

"ممكن تقتل الواحد فيه بهدوء" فكرت. "مش عاوز أضايقك بس أنا بافضل البارات الزحمة".

"ماشي، بس لازم تديني الفرصة عشان افتشك واتأكد أنك نضيف".

"ما فيش مشكلة".

اتصلت بماكس. كانوا منتظرين أمام فيلا الصربي وقد نفد صبرهم تماما، فأبلغتهم بالأخبار السعيدة.

"كويس متع نفسك بقى. من بكرة هانخش القلعة".

جيتاران، باص، طبول هارمونيكا وترِيات. تسع مقطوعات غير المقطوعة التقليدية Every day I have the blues. حفلة طويلة جميلة. ذهبت لتهنئة برتولين الذي عزف مرات عديدة في الوجار، ووجدته يثرثر مع عازف بلوز آخر من البندقية، ماركو بالستارشي. أهداني ماركو أحدث سيديهاته wimmen ‘n’ Devils.

سألوني لماذا أغلقت البار، فقصصت عليهم قصة يمكن تصديقها، ثم

ذهبت لشرب كالفادوس على البنك، وما أسعدني للغاية هو أنني وجدتهم يقدمون التمساح. أجبرت نفسي على الاكتفاء بمشروب واحد ثم طلبت قطعة تورتة.

"أي واحدة؟" سألتني المضيفة ذات العشرين عاما وهي تشير إلى العربة الممونة جيدا بأنواع الكيك والتورتة.

"اختاري انتي. أنا مش باكل أوي الحلويات بس أنا عاوز أثبت كمية معينة من الكحول".

"ماشي يبقى قطعة مزدوجة من تورتة الكريمة البني" قررت هي بثقة الخبيرة. "تأثير الكيكة الأسفنجية مالوش حل".

كنت سعيدا، فقد دار البلوز في دمي كحقنة مفيدة، فقد اتخذ اليوم قرب نهايته مسارا جيدا، رغم أني لم أكن أعرف أحدا من الموجودين، وكنت أفتقد الثرثرة في الوجار، فخرجت قبل أن تغمرني موجة أخرى من الكآبة. في السيارة وضعت السي دي الهدية الذي أخذته في المشغل ورفعت الصوت لأعلى درجة. انفجر صوت Baby please set a date مقطوعة قديمة للعظيم إلمور جيمس.

لم يكن اختياري للمركز التجاري بالصدفة، فهناك كان يعمل سجين سياسي سابق عرفته في السجن، وعندما خرج بعد 15 عاما كانت المرأة التي كان يقضي معها لياليه قبل القبض عليه في انتظاره. عشق عصابات أخرى. عمل كنادل، فمنذ تخرجه من كلية الهندسة لم يعرف شيئا يفعله

سوى ذلك لرعاية الطفلة التي ولدت بعد تسع شهور بالضبط من سجنه وأصبحت هدف حياته الوحيد.

حين طلبت منه هذا المعروف لم ينسحب للوراء. بلا تردد ولا أسئلة. كانت ذاكرته جيدة.

وصلتُ في تاكسي ودخلتُ من بابٍ جانبي. كان أربن هناك في انتظاري، عاقدا ذراعيه وينظر بيقظة. أشار لي أن أتبعه للحمام. فتشنا الحمامات لنتأكد أنها خالية ثم فتشنا أحدنا الآخر بحثا عن أجهزة تنصت. حين عدنا للبار عرضت عليه أن يختار هو المائدة. دليل آخر على حسن نيتي. كان ماكس قد أخذ مكانا بالفعل وبدا وهو يرتدي السماعات ويقرأ الجريدة الرياضية عاطلا مثاليا. حاولت أن أجد من يمكن أن يكونوا رجال رجل المافيا لكنني لم أر وجها يثير الشكوك. في الحقيقة، طالما قبِلَ عرضَنا فلن يستطيع أن يظهر ومعه مرافقون.

حضر النادل فورا وعاملني كشخص مجهول تماما. طلب الكوسوفي بيرة فقط، وطلبت أنا كاباتشينو وكرواسون. أراد أربن أن يبدأ الاتفاق في الحال، لكنني قلت له إن من الأفضل أن ننتظر الطلبات كي لا يقاطعنا شيء، بينما كان السبب الحقيقي هو أن جهاز التنصت الصغير الذي سأوقعه به كان مزروعا في صندوق المناديل الكارتون، وكان عليَّ أن أتأكد من وضعه في منتصف المائدة قبل أن ينطق أحدنا بكلمة.

قام السجين السابق بدور النادل المهتم واسترخى أربن أخيرا، ورشف جرعة كبيرة من البيرة قبل أن يطلب مني توضيح تفاصيل الصفقة.

"زي ما قلت لك في الأول احنا مالناش دخل في قتل فاتيون بايتيشي. وعشان نأكد براءتنا ممكن نقولك على اللي خطط واسم اتنين من اللي نفذوا. ولو قدرت تقنع ناسك أنهم ما ينتقموش مننا هانهديك عشرة كيلو دهب مشغول".

"أنتوا عارفين حاجات كتير عن قتل فاتيون وصعب أصدق أن مالكوش دخل خالص".

توقفت عن مضغ قطعة الكرواسان ببطء واستمتاع. أردت أن أقنعه أنني خائف منه لأنني غبيٌّ ولست شجاعا.

"قضينا سنتين بنحقق وعرفنا مين اللي عمل كدة، بس ما عرفناش مين اللي قال على اسمنا".

رفع كتفيه "أجيم، الأخ الأصغر. وصل لبيخا بجثمان فاتيون وقال للكل إنه مات في حادثة طريق، بس في الأسرة معروف أنه اتقتل عشان واحدة ست. أخذها من واحد إيطالي تابعه هو واتنين من أصحابه اللي عرفوا يوصلوا له في فرنسا وخلوه يدفع التمن".

أنصتُّ بانتباه. بدت هذه النسخة معدلة نوعا ما. "واتقتل ازاي؟".

"أنت فعلا ماتعرفش؟".

"ما عنديش أي فكرة".

"كان راجع بالعربية بعد ليلة قضاها في محل. عملوا له كمين عالطريق الزراعي. قتلوا كمان حراسه".

"مش فاهم ليه أجيم ده ماقالش الحقيقة".

"فاتيون كان أرمل بس كان هايتجوز بنت زعيم أسرة تانية".

إذن فقصة المسلخ في كورنس كانت مخبأة على الجميع، حتى أعضاء أسرة المافيا، فوالد فاتيون والزعيم وأجيم لم يرغبوا في أن يتناثر كلام عمن كان سيصبح وريث الإمبراطورية المافيوية في بي، وكان على وشك التحالف مع عشيرة أخرى من خلال الزواج. كان وغدا منحرفا.

"ودلوقت أجيم هو اللي هايتجوز العروسة اللي مستنية عالمدبح مش كدة؟".

"أه. والعشيرتين هيتوحدوا بشكل أقوى، بس دي أمور ماتخصكش. قل لي أنت: لو أنا قبلت هتمشي الحكاية ازاي؟".

"بالطريقة البسيطة. هنديك معاد ونسلمك المدبر وأسامي القتلة والدهب. نصه طبعا. النص التاني هاتستلمه لما تورينا أن مشاكلنا فعلا انتهت".

"أنت واصحابك هاتسلموني المدبر كدة بورقته؟".

"أه كدليل على حسن النية. وتقدر تعمل فيه اللي أنت عاوزه. تبعته هدية لأجيم بايتيشي أو تضربه طلقة في راسه".

ضحك ضحكة مكتومة "أنتوا بجد عاوزين تعيشوا؟".

"عارفين صمود قانون الشرف بتاعكو".

اتسعت ابتسامته في غرور. "أه بس أنا عاوز الدهب كله. وإلا انتوا ممكن تخموني وتقولوا ماكانش في أي اتفاق".

"ناصح أربن" فكرت. لقد قرر فعلا أن يقتلنا ولن يستطيع أن يحصل على النصف الثاني من الذهب أبدا لو لم يقنعنا بأن نعطيه إياه فورا.

"ده خارج المناقشة".

حملق فيَّ وهو متردد. هل يواصل الفصال أم يرضى بالعرض؟

هززت رأسي "ما تصرش. كمان أنا رجعت أعيش في بادوا مافيش داعى اني أخمك".

كان مجبرا على أن يفك قبضته. ربما خطرت في باله فكرة تأجيل إعدامنا حتى لا يتخلي عن الحصول على الغنيمة كاملة.

"وطبعا مش مفيد أني أسألك عن اسم المدبر".

"لو قلتهولك هاتروح أنت تجيبه لوحدك".

"المرة دي أنا اللي هاحدد المكان".

"تمام. بس لازم يكون في المنطقة".

"ما فيش مشكلة". تجرع باقي البيرة وأضاف:

"المرة اللي جاية لما تضربوا واحد من رجالتي اتأكدوا الأول أنه مش كوسوفي".

"مش فاهمك".

"صاحبك شلفط وش المغربي. الحكاية مش خطيرة، بس لو عملتوا حاجة زي دي مع حد من رجالتنا استعدوا للي هايحصل لكوا".

"كلام صعب بالنسبة لاتنين بيعملوا اتفاق سوا".

"أحسن نكون واضحين من الأول".

"ماشي. وواضح كدة بالنسبة لك أن اللي هايمشي ورانا مش هايحصل له طيب".

نظر لي بقسوة. قرأت في عينيه كل الرغبة في محاولة قتلي. "ماشي. كل واحد مننا قال اللي لازم يقوله".

تركته يذهب أولا. بعد دقيقتين قمت وابتعدت في الاتجاه المعاكس. قلدني ماكس ومر بجوار المائدة حيث كنت أجلس، وأخذ علبة المناديل ثم تبعني.

"تسجيل ممتاز" قال بعدها ونحن نبتعد بالسيارة.

"هايكون من دواعى سروري إني أفشخه" غمغمت. "كان هناك قاعد يتكلم معايا وهو عمال يفكر يقتلني ازاي. كنت حاسس أني محبوس في صندوق قزاز مع التعبان أبو جرس".

"ودلوقتي نستعد للشوط التاني؟".

"هو الماتش ده كام شوط في رأيك؟".

"تلاتة لو كل حاجة مشيت كويس".

قابلنا في ترفيسو روسيني العجوز الذي لم يتوقف لحظة عن مراقبة بافل ستويكوفيتش. كانت عيناه حمراوين ونبتت له لحية خفيفة بيضاء مشعثة. وتفوح من السيارة رائحة السجائر والتعب. جلس ماكس بجوار بنيامينو وأنا على المقعد الخلفي.

"ممكن نشيل من دماغنا فكرة الهجوم عليه في فيلته الحلوة اللي في الريف. الاتنين الحراس عايشين معاه، في كلاب ونظام إنذار" شرح لنا وهو يشير نحو قصر ضواح قبيح. "شايفين الشباكين القزاز اللي في الدور الأرضي؟ ده مكتب البلقأن ماركت، اللي متوصل بالمخزن في البدروم بسلم داخلي".

"والحراس؟".

"ما بيفارقوهوش لحظة".

"في حد تاني؟".

"سكرتيرة. متهيألي شفتها داخلة الصبح. لما اتصلت عشان اتأكد رد عليّ صوت واحدة ست".

"ممكن يكون في حد تاني في المخزن؟".

"لأ. في الصبح دخلت وخرجت عربيتين نقل وبوزيدار هو اللي فتح وقفل".

"العربية؟".

"المرسيدس السودا المعتادة. راكنة في الجراج اللي تحت الأرض. مستحيل نقرب منها".

"شايف الحكاية صعبة". علقت. "يمكن جه وقت إننا نستدعي لوك وكريستين والألمان".

"لأ" همس بنيامينو.

"عشان نخش وما نتأذيش لازم يكون معانا ناس بتعرف تشيل سلاح. ماينفعش نعملها لوحدنا".

"لأ بالعكس".

ذهبت للمقاعد الأمامية وقلت موجها كلامي لروسيني العجوز "مش ممكن تكون بتفكر في مشهد إطلاق نار من اللي بينتهوا وكل الأشرار واقعين على الأرض وصدرهم مخرم بالرصاص، صح؟".

ضرب بكفه على عجلة القيادة مما جعل أساوره ترن. "ساعات بتكون بجد حقير".

"هاقولك، مع أنك عارف الحاجات دي بتحصل ازاي: أنت بتخبط عالباب بكل حسن نية بس عشان التانيين ولاد كلب بيفكروا أنهم ممكن يعملوا حاجة ويحاولوا ينصبوا عليك وفي الأخر بتلاقي نفسك مضطر تسحب الزناد".

أشعل السيجارة الألف. "مش هايحصل".

لمست كتف السمين. "إنت رأيك إيه؟".

"بنيامينو عارف هوه بيعمل إيه. وبعدين كل مانعرف أقل كل ما يكون أحسن".

كان حراس الصربي الشخصيين عسكريين سابقين يحملون على أكتافهم خبرة حرب أهلية طويلة ودموية، كما كانوا أصغر سنا وأسرع، لكنْ ما كان يمكنني أن أحلم حتى بالتطرق لهذا الأمر، فروسيني استمر كأسطورة حتى وهو في الستين؛ أو في الثانية والستين من عمره.. ففي موضوع السن كان غامضا كممثلة في طريقها للاعتزال.

"هاستسلم لرأي الأغلبية" قلت مازحا لأخفف من التوتر. "ودلوقت هانعمل إيه؟".

"نقعد هنا لحد ما يطلع ديننا واحنا مستنيين اللحظة المناسبة عشان نروح نهادي صاحبنا بافل".

"تفتكر وجود تلات رجالة في عربية مش هايلفت النظر؟".

دق روسيني بقبضته على الزجاج "قزاز فيميه. ماحدش شايف أي حاجة من برة".

بعد فترة بدأت تمطر.

"عمري ما شفت مية بالشكل اللي حاصل السنة دي". غمغمت.

تبادل روسيني والسمين نظرة ثم انفجرا في الضحك.

"قلت إيه يضحك؟".

"أنت بجد بظت في لوجانو، ودلوقت بتعلق عالجو زي العواجيز

في الجنينة. هو بنيامينو وأنا ماكس. مش العواجيز اللي في الدكة اللي جنبك".

كانا محقين. كانا صديقيّ الوحيدَين الحقيقيّين. كنت في واقع الأمر منزعجا من مناقشة البارحة مع السمين. شعرت شعورا غريبا، كأنني تائه في شبكة من الشوارع التي أعرفها جيدا.

"امبارح قضيت تلات ساعات في بار بتاع صينيين اتفرج عالناس اللي طالعة ونازلة من الأتوبيس".

"كويس كدة تبقى أنت". تدخّل رجل العصابات السابق العجوز وهو يواصل القهقهة. "أنت الوحيد اللي تقدر تضيع وقت طويل جدا في أي كلام فاضي مالوش لازمة".

"مالوش لازمة؟ أنا دلوقت ممكن أتبرع بجواهر الحكمة عن معني الوجود"

"أراهن أنك ها تحكيهالنا دلوقت".

"هاتفضلوا مديونين لي بقية عمركو".

في الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة بالضبط خرج الصربيوْن الثلاث والسكرتيرة من مكمنهم. مشي بافل ستويكوفيتش بصحبة سيدة بين الخامسة والثلاثين والأربعين عاما من عمرها. طويلة، شعرها أسود طويل، ترتدي ملابس مبهرجة إلى حد ما. كان بوزيدار وفلادان يتبعناهما على مسافة عدة أمتار. مشوا حوالي خمسين مترا ثم دخلوا بارا يقدم وجبات سريعة.

"سكرتيرة وعشيقة" حكم روسيني.

"هل وصلوا معا؟" سألت.

"لا. الست وصلت بعدهم على طول".

"لازم نحاول ما ندخلهاش في الموضوع".

"ما عتقدش إن ده ممكن".

"وجع دماغ تاني" تمتمت. كنت متعبا من الحبس في السيارة.

استدار ماكس ليراني. "ما تزنش يا ماركو، أنت عارف أننا مش هانمس شعرة منها".

بعد خمس وأربعين دقيقة بالضبط عادوا لموقعهم في البلقان ماركت بنفس التشكيل.

بين الساعة الثانية والخامسة عصرا وصلت شاحنتان ثانيتان مجهولتان تماما. لم تبق كلٌّ منهما أكثر من عشرين دقيقة.

بعدها بنصف ساعة صعدت المرسيدس على مطلع الجراج تحت الأرضي، وتوقفت أمام بوابة الشركة، واستطعنا أن نرى بفضل عامود إنارة أن الحراس فقط كانوا بداخل السيارة. خرج بافل والسكرتيرة بعدها بساعة. قامت هي بغلق المفتاح وتشغيل جهاز الإنذار. صعدت المرأة إلى سيارة رياضية ثمينة. وحياها الصربي بحركة من يده وابتسامة.

نظرت للساعة. "الساعة اتنعشر ونص بالظبط".

"دول أصحـاب منهج" قال ماكس. "بيحسبـوا الحاجات بالدقيقة، كل يـوم بيعملـوا نفس الحاجات في نفسـ الساعات. لـو فضلنا هنا سنة مش هايغيروا أي حاجة".

"العربيـات" تمتـم بنيامينـو. "تلاتة النهـاردة الصبح واتنـين العصر. نستخدم واحدة منهم عشان ندخل".

صباح اليوم التالي تبعنا الشاحنة الأولى حين خرجت من الجراج التحت أرضي لشركة البلقان ماركت. دخلت الطريق السريع و لم نتركها حتى أول مخرج لفيرونا، فأوصلتنا لورشة مجهولة في الريف.

"باعترف أني نفسي جدا أعرف البضاعة "البلقانية" اللي بتتعامل فيها شركة بافل ستويكوفيتش".

رفع روسيني كتفيه. "ماعنديش أي فكرة عن ممكن تكون إيه، ولا حتى تقدر تفهم مين اللي بيموّن ومين اللي بيستلم البضاعة".

"لو ممنوعات أقدر أقول إن صاحبنا باضت له في القفص. هو في ظابط مش هايكون نفسه يعرف أكتر عن التصدير والاستيراد لشركة البلقان ماركت؟".

"يمكن يكونوا زارعين كاميرات زي اللي في بار أربن الشاباني".

طرقع روسيني إصبعه. "أهي دي حاجة ما فكرناش فيها. المفروض نهتم نعمل تمويه أكتر علينا".

وكان معني هذا أن نخفض رؤوسنا ونقر بالتهمة: لم تكن لدينا خطة حقيقية، ولا حتى فكرة مبهمة عن المفاجآت المحتملة.

عدنا لترفيزو بعد الغداء. أصر ماكس على الخروج من الأوتوستراد قرب فيشنتزا، حيث يعرف حانة جيدة.

في عصر ذلك اليوم لم تحضر أي عربة للشركة، أما ما عدا ذلك فقد تكرر كل ما تم في اليوم السابق.

"تعالوا نجرب نمشي وراه" اقترحت حين رأيت بافل يركب المرسيدس.

لم يكن ماكس مقتنعا. "لو شافونا كل حاجة هاتبوظ".

"يمكن يكونوا رايحين يشتروا حاجات".

"تفتكر ستويكوفيتش من النوع اللي هايمشي في سوبر ماركت يزق عربية؟".

"لازم يكون بياكل".

"مديرة البيت بتهتم بالموضوع ده" قاطع بنيامينو. "لازم نركز عالعربيات".

أخذنا أربعة أيام حتى نفهم أن عربة رينو زرقاء هي الأكثر ترددا على المحل. تصعد من الجراج ثم تقف أمام الباب، تحت مراقبة كاميرا تليفزيونية نشطة. بعد دقيقتين يقوم أحد الحراس بفتح الباب ويسمح للعربة بالدخول، وعلى متنها شاب ذو شعر طويل وصف من الأقراط

الصغيرة في أذنه اليمني. كان يعيش مع زوجته وطفلين بمكان قرب مونت بيلونا وكان يقود سيارته عبر منطقة البندقية ليقوم بنقلات. لم يبد كمجرم وغالبا كان بعيدا عن أي نشاط إجرامي. على أي حال كنا مجبَرين على دخول حياته بشكل خشن.

حدث هذا في اليوم الذي قررنا فيه تصفية حساباتنا مع هذا الوغد الحقير بافل ستويكوفيتش.

الاثنين 23 مارس 2009

رغم مرور يومين على بداية الربيع إلا أن الطقس كان باردا للغاية. كانت الساعة السابعة والنصف صباحا ولا شيء يشير لانتهاء الشتاء. قام الرجل بعدة تحركات بعربته للأمام والخلف حتى يخرج من حديقة المنزل. دخل طريقا زراعيا، وبعد حوالي مئة متر وجد سيارتنا تقف وسط الطريق بالعرض. كنا أنا وماكس وبنيامينو منشغلين في فحص الإطار الخلفي.

أوقف الرجل عربته على بعد عشرة أمتار وأخرج رأسه عبر النافذة. "أي خدمة؟".

اقترب منه روسيني ثم صوب المسدس على فكه. "النهاردة هايكون يوم متميز شوية".

لم يبدُ السائق خائفا بوجه خاص.

"الشاحنة فارغة، وفي جيبي مئة وخمسون يورو".

"أنت اسمك فابيو مش كدة؟" سأل رجل العصابات السابق بصوت أبوي.

"أه..".

"ماشي يا فابيو، أحنا محتاجين عربيتك. وبعدين هانبقى نقولك تروح تاخدها منين".

"أنا باحتاجها في الشغل".

"هنعوضك عن اليوم اللي ضاع".

"أنتوا مش هاتخطفوني وتكتفوني في مكان، مش كدة؟".

ابتسم بنيامينو مطمئنا إياه. "دلوقتي ارجع بيتك عند مراتك وعيالك الاتنين واستني اتصال مننا".

امتقع وجه الرجل تماما. كان يكفي ذكر أسرته حتى يصاب بهلع شديد. لم يكن أمرا مثيرا للفخر لكن لم نكن لنسمح لأنفسنا أن يقوم بالإبلاغ عن سرقة الشاحنة. هذا بالضبط نوع السرقات الذي يثير فضول الضباط.

قال ماكس رقم هاتف الرجل "ده رقمك مش كدة؟".

ازدرد فابيو لعابه. "هاعمل كل اللي انتو عاوزينه، بس....".

"اتصرف كويس ومش هايحصل أي حاجة" هدأت من روعه، ثم أشرت له على اتجاه المنزل. "ادخل تحت الغطا وخليك في التكييف. انت النهاردة عندك حمي".

مشي بخطى مضطربة ثم جرى. تصرفنا كالهواة، لكن ربما لم يفهم فابيو ذلك. ربما انطلت عليه حيلتنا.

دخل بنيامينو الشاحنة وخرج ملوحا بلوح خشبي له مشبك على شكل زجاجة بيرة يحمل ورقة عليها مسار اليوم.

"البلقان ماركت الساعة 9.30".

صعد السمين للسيارة بصحبة روسيني، وركبت أنا السيارة الرينو وتبعتهما. في إحدي الإشارات نظرت لنفسي في المرآة الجانبية. كنت أرتدي بذلة وكرافتة وكنتُ حليق الذقن. ربما أصبحت عادة. بدوت كرب عمل لورشة ما، يأخذ مكان أحد مستخدميه الذي وقع مريضا. لم يكن ليستغرب ذلك أي أحد. هذا هو الشمال الشرقي.

ركن أصدقائي السيارة في ترفيزو واختفوا في مؤخرة الشاحنة مع حقيبة العدة. في الساعة المحددة بجدول فابيو صعدت المطلع المؤدي للمخزن. أنزلت المظلات الشمسية ومثلت أنني أتمخط، لكن بوزيدار اكتفي بالتعرف على العربة.

أخذ يدفع البوابة الثقيلة على عجلاتها ليفتح، دون أن ينتبه أن بنيامينو كان قد خرج ووقف خلفه ومسدسه في يده. دفع روسيني مسدسه بعنف على ظهر الحارس الصربي فتجمد رافعا ذراعيه. كانت هناك مساحة كافية تسمح لي بالمرور فقمت باستغلالها لأمر بالشاحنة. وحين أصبحنا داخل المخزن خرج ماكس. وجدنا أنفسنا داخل بدروم مساحته مئة متر مربع، وجدرانه مغطاة تماما بأرفف معدنية مثبتة في مربعات.

بعـد أن جعـل روسينـي الحارس يركـع قمت أنـا والسمـين بتقييده بكلابـات الأنابيب البلاستيكية من يديه ورجليـه. الطريقة الإسرائيلية. لا توجد طريقة يحرر بها نفسه. وضعنا شيئا على فمه كي لا يصرخ وعصبنا عينيه، ثم سحبناه لركن.

تركَنا نفعل به ذلك. كان محترفا ويعرف ما هي اللحظة التي عليه أن يعترف فيها بتفوق الخصم. في نفس الوقت راقب بنيامينو السلم الداخلي. صعدنا بلا ضجة وولجنا لغرفة بلا نوافذ، عارية تماما إلا من مكتب عليه ثُبتت شاشات لأربع كاميرات تلفيزيونية. عرضت إحداها صورة بوزيدار وهو يحاول أن يتحرك يمنة ويسرة. أما الأخريان فتراقبان الخارج، والأخيرة أظهرت ممرا. تبادلنا نظرة قلقة. هل رأي فلادان المشهد وأطلق إنذارا؟

هز روسيني رأسه. كان كل شيء هادئا، واستمر في التقدم ومسدسه مشهَر. تبعناه بمسافة خطوات قليلة. سمعنا بوضوح صوت المرأة التي كانت تتحدث في الهاتف، وبعد قليل رأيناها من خلال باب موارب، وعرفنا بوجود فلادان من خلال عادته بأن يصفر وهو يعد الشاي. كان داخل مطبخ صغير و لم تكن هناك طريقة لمفاجأته من خلفه.

تجسد بنيامينو على الباب مشهِرا مسدسيه الـ 45 "أكيد مش عاوز تموت النهاردة" قال ببطء.

قدر المحارب السابق كل الاحتمالات للخروج منتصرا من هذا الموقف، لكن لم تضمن له أي منها ولو أدنى فرصة لتجنب الإصابة بطلقة أو اثنتين. فَرَدَ ذراعيه معلنا استسلامه، لكن روسيني لم يكن قد نسي أمر

الخنجر المخبأ في كمه. "اسحبه لبرة بصوابعك الاتنين".

ظل الحارس الشخصي مندهشا ونظر له بنظرة متسائلة.

بوزيدار قاللي "كذب غادرا".

لن يسامح فلادان رفيقه أبدا. في الحقيقة، علمنا بأمر الخنجر أثناء المقابلة في محل المخبوزات في فيتشنزا، وهذه أمور لا تنسى أبدا، ولو بعد مرور عدة أعوام.

أطاع الصربي وأخرج خنجر كوماندوز مفلطحا وقصيرا وقاتلا. وضعه على الطاولة. أمره صديقنا أن يستدير ويركع، وقمنا أنا وماكس بتقييده كزمليه.

"روحوا هاتوا الست. نتقابل في أودة بافل".

كانت السكرتيرة مشغولة بالمكالمة التليفونية، ولم تدر بأي مما حدث. كانت تتحدث الإيطالية بطلاقة، لكن لم تكن لدينا شكوك في كونها صربية، وما إن أغلقت الخط حتى دخلنا غرفتها وأيدينا في جيوبنا.

كان رد فعل السيدة يقضي على أي شك في أنها ليست جزءا من العصابة: فلم تصرخ ولا حاولت التظاهر بإصابتها بالإغماء.

كانت جميلة لكن ملامحها قاسية، وزاد الموقف من حدتها.

"أنتو مين؟".

"تعالي هنا. هانروح نتكلم كلمتين مع رئيسك".

لم تدعنا نكررها مرة أخرى، وسبقتنا في الردهة ثم فتحت بابا. كان المكتب فاخرا، وكان رجل العصابة الصربي جالسا على المكتب فاردا ذراعيه على سطح الكتب المصنوع من الخشب الماهوجني، وروسيني جالسا في مواجهته ممسكا مسدسيه الكولت مستندا على فخذه. أشار للسيدة أن تجلس على الأريكة.

"اقعدي هنا".

"دا انتوا كلكوا.." فح بافل بازدراء. "ولا حتى حتة عقل".

نظر له بنيامينو نظرة مدمرة. "صاحبنا كان بيسألني عن سبب زيارتنا المفاجئة قليلة الذوق".

"وانت قلت له إيه؟" سأل السمين.

"أنه مش صح يفضل فاكر أننا عبط".

أتى عليّ الدور. "عاوز تكمل تمشي في الطريق ده لحد ماتموت ولا تفضل نتفق؟".

"حاسس إني كدة كدة ميت أصلا".

"تستاهل" شخر رجل العصابات السابق العجوز.

فككت أزرار معطفي. كان الطقس حارا، وكنت قد خلعت قفازي اللاتكس بكل سرور. "فعلا من دواعي سرورنا اننا نقتلك، بس احنا اتفقنا مع الكوسوفيين من أسرة فاتيون بايتيتشي وهانسلمك لأجيم، الأخ الصغير".

انطلقت السيدة تتحدث بسرعة باللغة الصربية بصوتها الرفيع. لم يخرسها سوى فوهة مسدس بنيامينو. لم أرفع عيني عن بافل لأستمتع بلحظة الرعب الصافي التي كان من المفترض أن تصبغ وجهه لفكرة أن ينتهي به الأمر بين يدي رجال المافيا، لكن على العكس بدا لي أنني لمحت في عينيه نظرة ارتياح.

احترت. هناك شيء لا أفهمه.

أخذتُ المرأة من ذراعها واستدرت نحو ماكس. "تعالي نشوف مكان نحبسها فيه".

وجدنا مخزنا صغيرا بلا نوافذ للأدوات المكتبية. "إذا بافل ماتكلمش هانرجعلك" هددتها.

بالطبع لم نكن لنعود لها، وهكذا ستعتقد أن رئيسها وعشيقها قد خان. اكتفت بالنظر لي باحتقار. أغلقنا الباب بالمفتاح وحشرنا كرسيا تحت المقبض.

"أكيد الناس دي عدت بكل المصايب اللي في الدنيا عشان يكون جلدهم سميك كدة" علق ماكس.

"في حاجة مش راكبة. يمكن المفروض نفكر شوية".

"عاوز تقول إيه؟".

"ليه بافل ماترعبش من فكرة إنه يقع في إيد الكوسوفيين؟".

"مانا لسة باقولك جلدهم تخين وعندهم استعداد للموت".

"هما ازاي قدروا يوصّلوا لأجيم إننا إحنا اللي قتلنا فاتيون؟".

"مش عارف يمكن كان كفاية ينشروا الخبر".

انتابتني رغبة في التدخين، لكنني منعت نفسي: فالسجن ممتلىء بأولئك الذين تركوا آثار دي. أن. إيه على أعقاب سجائر ألقوها في الأماكن الخطأ. "مش عارف اشرحهالك ازاي، بس أنا متأكد أن الصربي ما خافش من أجيم بيتيتشي".

"خليني أفرض كدة، في الحالة دي عندك فكرة نتصرف ازاي؟".

"سيبني أرتجل".

عدنا للمكتب. لم يكن ستويكوفيتش قد تحرك ميليمترا واحدا. راقبته لعدة ثوانٍ ثم قررت أن استجيب لحدسي وإحساسي باللحظة.

"عاوزين نعرف فين جريتا جاردنر".

تنحنح. "زي ما قلت لك قبل كدة ما عرفناش نعرف حاجة عنها".

"اسم أربن الشاباني معناه إيه بالنسبة لك؟".

هز رأسه" ده اسم كوسوفي".

"الحقيقة ده شاب ماعندوش مخ وهو ريس عشيرة البي في المنطقة عشان الريس بتاعه فلوريان تودا في السجن. مستني اللحظة اللي هايمسكك فيها بإيده عشان يعمل مفاجأة لريسه العجوز ولأجيم ويعتلهم راسك وإيديك. فهمت؟ هو بس اللي عارف إننا هنا دلوقت".

ضم قبضته مرتين، ربما اهتز يقينه، وربما التفسير الأبسط، أي أنَّ ذراعَيْهِ قد أصابهما الخدر. قررت المجازفة.

"لو خرجنا هنا من غيرك، هو هايخش ويقطعك حتت. تفتكر هايعمل إيه في الهانم؟ وتفتكر لو طلبت منه يستأذن أجيم هايسمعك؟".

شعرت بنظرة أصدقائي المصوبة نحوي. بالتأكيد ظنوا أنني جننت.

لكنني كنت محقا، وقد أظهرت إجابة ستويكوفيتش ذلك.

"تقدروا تعرضوا عليَّ إيه؟".

"الهروب" كذبت. "أنت بس. حراسك والست هايروحوا للشاباني".

"اسمها سلافكا، ومش هاتخلي عنها. مش هاعيش من غيرها".

عشق رجل العصابات الصربي. كان مستعدا للموت من أجل حبيبته لكن لم تأخذه أي شفقة بسيلفي. لم تكن اللحظة أو المكان المناسبين لكن لم أستطع منع نفسي من أن اسأله: "وانتوا ليه مش عايشين مع بعض؟".

"هي متجوزة واحد إيطالي".

نظرت لبنيامينو الذي رفع كتفيه. "المهم تتكلم".

التفتُّ نحو ماكس الذي أومأ برأسه موافقا. "كفاية على أربن الاتنين الحراس".

"عاوزين تعرفوا إيه؟" سأل بافل.

"الحقيقة" أجبت.. ثم أدركت غباء ما قلته للتو. فشخص كستويكوفيتش لا يعرف حتى ما هي الحقيقة، ولن يقولها على أي حال. سيقتصر ما يقوله على ما يعتقد أنه كافٍ لينجو. كان يجب أن أكون أكثر تحديدا.

"عاوزين نفهم إيه اللي دخلنا في القصة دي، وعاوزين نعرف معلومات مفيدة توصلنا لجريتا جاردنر وتخلينا نقدر نسيطر عليها".

دون أن يلاحظ بافل أخرج ماكس من جيبه جهاز تسجيل صغير وشغله.

صمت مسؤول المخابرات السابق لبضعة لحظات، وبعد أن استجمع أفكاره بدأ يسرد القصة. منذ البداية. منذ عام 2004.

أرادت المخابرات الصربية معرفة الحقيقة بخصوص معهد الطب الشرعي، كي يفضحوا الكوسوفيين على المستوى الدولي، وأرسلوا عضوين نشِطين لإيطاليا.

كان الشخص الذي أراد إجبارنا على العمل لحسابه وقام بكل شيء ممكن ليُقتل على يد روسيني يُدعى ميلان ماركوفيتش. كان عشيق جريتا جاردنر منذ كانت طالبة في الجامعة، وكان يراقب الطلاب كي لا تمر برؤوسهم أفكار غريبة، والعلامة التي وجدناها محفورة على الخاتم كانت تمثل الجرح الذي قاما به بسكين مطبخ ليمزجا دماءهما بعد أن مارسا الحب لأول مرة.

كان ميلان، الذي كان يكبرها بعشر سنوات، وسيما، لكنه لم يكن عبقريا. وقد اتضح ذلك من الطريقة التي جعلنا نقتله بها.

كانت جريتا هي العقل المدبر، والتي كانت تدعى في الحقيقة ناتاليا دينيش، لكن بافل وحده يعرف هذا، حيث ألحقها بالمخابرات بتوصية من ميلان. بعد أن أشرف على تدريبها بنفسه بعث بهما إلى الخارج، ثم اندلعت الحرب الأهلية وعمل كلاهما تحت راية صربيا العظمي.

حين ترك بافل الخدمة في المخابرات ليعمل لصالح عصابة اللصوص انقطعت أخبارهما عنه. عرف أنه بعد قتل ميلان وفشل العملية طردت جريتا من الخدمة وغيرت النشاط وتخصصت في الدعارة على مستويات عليا، وفي وقت قصير استطاعت أن تنشيء منظمة صغيرة لكنها ذات كفاءة، تستطيع إشباع أي شطحة يمكن أن تمر ببال أي شخص ثري. وتعني كلمة "أي شطحة" الممارسات الأكثر تحريما وشذوذا.

لكنها في نفس الوقت لم تتخلي عن رغبتها في الانتقام. كانت فقط تنتظر اللحظة المناسبة، والتي جاءت حين بدأ بافل في القيام بأعمال مع أجيم بيتيتشي. أعمال سرية للغاية نظرا للكره المتبادل بين الأثنية الصربية والكوسوفية.

لم تكن لدي أجيم أدنى نية لقتل أخيه. على الأقل قبل إعلان موضوع الزفاف. كانت الفتاة الموعودة بالزواج من فاتيون تحب أجيم بجنون وكان يبادلها نفس المشاعر. لم يكن أجيم ليحتمل وقوعها في يد هذا الوحش المنحرف.

"خليني أتولي انا الموضوع ده" قال بافل وبدأ يرتب مكيدة مستخدما فيها الخبرة التي حصل عليها من خلال عمله الناجح لسنوات عديدة في المخابرات اليوغوسلافية ثم الصربية.

اتصل بجريتا، التي فكرت فورا في تقديم إثارة إدارة مسلخ جنس جماعى لفاتيون. كان ولع الكوسوفي بالسيدات الناضجات الحسيات معروفا وكذلك ولعه بالاغتصاب الجماعى، لذا...

التفت بحدة نحو روسيني واثقا أنه على وشك إطلاق النار.

كانت يدي بنيامينو ممسكة بالمسدسين في وضع التصويب لكن سبابتيه كانتا بعيدتين عن الزناد. ودمعتان كبيرتان تتكونان في عينيه وتنحدران على وجنتيه.

"هي دي الحكاية" لخص بافل، "عاوزين كمان التفاصيل؟".

"وفرها علينا" رد بنيامينو، جاء صوته من أعماق الألم.

عشق جريتا، عشق أجيم. أعمال بافل التجارية. يا لها من قصة قذرة.

بالمناسبة: "إيه بقى الشغل اللي كان بينك وبين الكوسوفي؟" تسرعت بالسؤال.

"ممكن برضو أقولكوا مع إني بافكر أغير النشاط".

قادنا رجل العصابات نحو المخزن. ودون أن يلقى بنظرة على رجله المقيد والمعصوب العينين استخدم سكين ليفتح صندوقا كبيرا وأفرغ محتوياته على الأرض: علب أدوية.

أخذ ماكس إحداها. "ده مضاد حيوى لعلاج وباء أنفلونزا الطيور".

"كلها أدوية تقليد" كشف ستويكوفيتش مشيرا للأرفف. "الأول أدوية لعلاج الضعف الجنسى، وبعدين أدوية السكر وأمراض القلب.... الجزء الأكبر منها بيتباع م الانترنت لكن الدائرة وسعت ودلوقت ممكن تشتريها من أي مكان. هي أساسا بتباع للمهاجرين غير الشرعيين اللي بيخافوا يروحوا للعيادات والمستشفيات. بيتم إنتاجها في كوسوفو. أجيم فتح معامل كتيرة وجاب المواد الخام من باكستان والهند. هو راجل ناصح درس اقتصاد في جامعة أمريكية ورجع بأفكار حديثة كتيرة".

سمعت صوت سلاح يتم إعداده للإطلاق. كان روسيني يوجه أحد مسدسيه عيار. 45 في وجه الصربي.

"أنت خليتني ماليش نفس أحافظ عالاتفاق".

وضعت نفسي في منتصف خط إطلاق النار. "لازم يقولنا الأول على مكان جريتا جاردنر"

"قصة الأدوية المزيفة دي أوسخ من أنه يتساب يعيش".

"معــاك، بــس لازم نختــار إيه اللــي يهمنا أكــتر، إيه الأهــم بالنسبة لسيلڤى".

"صح سيلڤى. عاوزك بس تاخد بالك أن النطع ده خلانا نلاقى صور للست بتاعتي في صندوق رسايل وبعدين مثل دور الراجل اللي مقدر مشاعرى". أنزل مسدسه بسرعة. "لو شفتك تاني يا بافل هاقتلك".

تنفس الصربي الصعداء. لم تكن فكرة جيدة أن يتباهي بأمر الأدوية.

ذهب ماكس لإحضار السيدة من القبو. ثم أحضر من الشاحنة حقيبة وفتحها. "دلوقت كل واحد منكوا انتوا الاتنين ياخد اللي في الشنطة دي ويحطهم في الكيسين دول".

أدخلت المرأة يدها في الحقيبة ثم سحبت أساور وعقود وخواتم. "ده دهب".

وقام الصربي بما فعلته نفسه ففهم. "وعليه بصماتنا"

هنأته "أنت راجل ذكي".

"جه منين؟".

"حسب الشهادات الحرامية كانوا بيتكلموا صربي. بيتهيألي ده يخليكوا تهربوا حتة بعيدة".

نظرت للساعة "ساعة الرحيل. أربن الشاباني هييجى بعد شوية. لسة عندك وقت تقولنا فين نلاقى جريتا جاردنر".

سحب عنوان في باريس وعليه اسم وهمي.

"مابتستعبطنيش، مش كدة؟".

"لازم تثق في".

ابتسمت لـه بابتسامة شريرة. "وأنت كمـان، عشان دلوقت هاتحصل حبيبتك سلافكا في الدولاب. قصة الكوسوفي كانت حدوتة عشان تتكلم".

لم يبد عليه الاندهاش. لم يفعل شيئا سوى أن غمغم أن هذا لم يكن جزء من اتفاقنا.

"خلال كام ساعة المفروض هاتقدر تفتح الباب وتمشوا".

ضربه بنيامينو بظهر المسدس. "امشي يا خرا".

فتح ماكس زر التشغيل في المسجل فسمع صوت بافل وهو يعترف بعلاقته بأجيم بيتيتشي.

دار ستويكوفيتش على عقبيه وارتسمت على فمه تكشيرة مريرة. "كان لازم أفكر في كدة".

"تنسانا خالص يا إما هتلاقى التسجيل ده عاليوتيوب".

"هدي نفسك. أنا كنت بالعب اللعب دي قبلكوا بسنين".

خبأت انا والسمين إحدي كيسى الذهب الذي يحتوى على خمسة كيلو من الذهب المشغول خلف العلب الكرتون. ثم صعدنا الشاحنة وأخيرا أصبح بإمكاننا أن نترك هذا المكان الموبوء للأبد.

أشعلت سيجارة واتصلت بأتيليو كاريني، الشرطي الوسيم. "هاديك دلوقت عنوان في ترفيسو. هاتلاقى جوة زريبة خنازير. نصيحتى إنك تكون أول حد يخش من الباب، لو عاوز تسبك الموضوع. بس أضمن لك أنك هاتخرج منه وانت شخصية عامة مشهورة... "

"ماشي. هات العنوان الزفت ده".

"آخر حاجة: لازم تشوف طريقة تخلي بيها الكاميرا اللي قصاد البار اللي بيتلقح فيه أربن الشاباني تعطل لمدة أربعة وعشرين ساعة".

أوقف بنيامينو السيارة أمام محل لعب أطفال وخرج بعد برهة ومعه لعبتين على شكل حيوانات ضخمة. دائما ما يبالغ ككل رجال العصابات من جيله.

"عشان ولاد فابيو، الراجل اللي استلفنا عربيته".

أذاعت كل نشرات الأنباء في المساء أخبار عملية مهمة قامت بها قوات الشرطة في بادوا وترفيسو حيث قاموا بإلقاء القبض على عصابة من الصربيين تقوم بتهريب الأدوية المزيفة واستقبال الذهب المسروق. كما تم العثور على اثنين كيلو من المجوهرات المسروقة التي نهبت في السرقة التي قدرت بملايين اليوروهات وتمت منذ فترة في ورشة مشغولات ذهبية في فالينتسيا، مقاطعة الأسكندرية.

"الشرطة عملت تسوق" قهقهت. "حوالي أربعة كيلو دهب عشان مراتاتهم وحبايبهم وحمواتهم".

"وبافل المسكين" علق ماكس ساخرا بينما يملأ أطباقنا بالنوكي آل راجو* التي أعدها بيديه. "لما اللبنانيين هايقابلوه عشان يحاسبوه على دهبهم السجن هايبقى أصعب بالنسبة له".

"السافل ده بيطلع من كل حاجة تحصله زيالشعرة من العجينة دايما"

قال بنيامينو. ثم استدار نحوى. "دلوقت هانديك الكوسوفي ازاى؟".

قمت بصب كأس من النبيذ. نبيذ احمر توكاى من كولي بيريتشي. "مش عارف. حد فيكوا عنده فكرة؟".

في صباح اليوم التالي كان الكوسوفي يلعب بالورق مع بعض أتباعه. "عاوز أكلمك".

قام بإشارة من يده فابتعد الأخرون.

"أنا جبت لك الدهب" قلت، مادا له كيسا صغيرا من تحت المائدة.

"مين الغبي اللي قالك تجيبه هنا؟" غمغم أربن منزعجا.

كان كمن يجلس على جمر. فأتباعه سيتساءلوا عما أخذه في البار، المكان الأقل أمنا في بادوا. كما أنه لم يكن غبيا. فأخبار الغارة على ترفيسو كانت تحتل الصفحات الأولي من الجرائد المحلية.

"امبارح لقوا دهب عند الخرا الصرب دول والنهاردة أنت جايبهولي. جاررلي وراك البوليس كمان؟".

"لأ. بس شروط اتفاقنا اتغيرت. كنا فاكرين أن بافل ستويكوفيتش هو اللي خطط لقتل فاتيون، كنا غلطانين، ومش عاوزين نتهم ناس بريئة. كمان البوليس سبقنا".

نظر لي الكوسوفي محتارا. فما كنت أقوله له لا يمكن تصديقه بأي حال، لكن في هذه اللحظة لم يكن ذلك مهما.

"أحنا جبنالك الدهب وهو بس نص اللي اتفقنا معاك عليه، عشان تروح لأجيم وتقوله انك متأكد اننا مالناش أي دخل بموت أخوه. ولازم تكون شاطر جدا وتقنع ريسك أنه يسحب الحكم اللي علينا بالقتل".

وسحبت من جيبي سى دي ووضعته أمام كأسه من البيرة.

"إيه ده؟".

"نسخة من الرغى اللي رغيناه في المركز التجارى".

شحب. لكن الغضب عماه ووضع يده داخل جيب معطفه باحثا عن مطواته.

"ماتحاولش" همست محاولا أن أخفي الخوف الذي قبض بمخالبه على معدتي. "بره أصحابي مسلحين. مش هاتخرج منها حى".

سمعته يسب بألفاظ بلغته واستدار الجميع تجاهنا.

"أهدي وفكر. احنا مش عاوزين نضحك عليك، احنا بس عاوزين نتساب في حالنا".

"امشي وماتخلينيش أشوف وشك تاني".

نهضت. "نصيحة أخيرة: أصهر المجوهرات بسرعة. سهل أوى يتم التعرف عليها، وانت مش عاوز تتجر لمحاكمة مع الصربيين".

خرجت بعدها مسرعا من الباب. خرج روسيني من وراء العامود الذي كان مختبئا وراءه. كان قابعا هناك بصحبة ماكس وسمعا كل ما قلته

لأربن بفضل المايكروفون الصغير المثبت على صدرى. إذا أراد أربن نزع أحشائي كان بنيامينو سيقوم بمنعه. على الأقل كانت هذه خطتنا...

أشعلت سيجارة، كانت يداى ترتعشان. وكانتا شاحبتان تماما.

ابتسم المهرب العجوز. "وده كمان راح".

ما أن وصلت السيارة حتى فتحت الهاتف. وجدت عشرة رسائل من أتيليو كاريني. اتصلت به.

"أوسخ من حظيرة خنازير أنا عملت المستحيل عشان مادخلش أنا نفسي في مشاكل". تذمر.

"ماتطلعش ديني. أنا شفتك في التليفزيون وقريت الجرايد. أنت دلوقت أشهر ظابط في الشمال الشرقى".

"أنت وعدتني كمان بالشاباأني".

"آه بس دي ماصابتش".

"بس ينفع تشتغل عليها لحد ماتصيب".

"لأ. جه الوقت اللي نودع فيه بعض".

"أنا اللي أحدد ده".

تأففت. دائما ما يكون رجال الشرطة هكذا. "عاوز نعمل زيالعيال؟ نروح الحمام ونشوف مين بتاعه أطول؟".

انفجر في الضحك ثم أغلق الخط. نزعت خط المحمول ورميته من

النافذة. في إشارة المرور التالية أهديت المحمول نفسه لرجل كان يبيع الزهور.

"لو هاقول كل اللي ف قلبي" غمغم روسيني. "ماباحبش الجمايل المتبادلة مع الظباط دي. أفضل أعملها ف أضيق الحدود".

"بالعكس المفروض تكون ممتن للظباط الفاسدين" قلت مجادلا. "دلوقتي الحاجات مش زيزمان. لما كنت دايما عارف أنت بتتعامل مع مين وكان ممكن تمشي أمورك من غير البوليس. مشكلتك دلوقت هي ازاى تجيب معلومات والبوليس هم أفضل مصدر متاح. بيجمعوا معلومات ويحطوها في مكان مركزيوبتكون دايما للبيع".

"زائد" أضاف السمين، "كل عصابات المافيا دي بيستخدموا البوليس في أنهم ينيكوا منافسينهم. كله مهلبية. موضوع انك تميز الحاجات من بعضها ده بقى موضة قديمة".

رفع المهرب السابق يده من على عجلة القيادة ليرن أساوره. "ماهو ده الموضوع. عشان ماتغرقش في الوحل ده لازم تعيش في الماضى. وتلاقى ناس بتفكر بأسلوبك وتشتغل زيعا لم أثار الجريمة: تهريب وشغل بالطريقة القديمة. المشكلة كات دايما هي تحقيقاتك الخرا دي يا ماركو. طول الوقت وأنت بتقلب في الزبالة دي من الصبح للمسا. لما تخلص الحكاية دي بجد أتمنى أنك تغير شغلانتك".

كان يوجه كلامه لي فقط مع إن ماكس كان زميلة. كان واضحا أن السمين حدثه عن فراتا بولسيني وعن إيرما. لم يكن ذلك هو وقت

الحديث عن تلك الأمور. خاصة أنني لم أكن أرغب في ذلك.

"والقصة دي هاتنتهي ازاى؟ ماتكلمناش لسة عن احنا عاوزين نتصرف ازاى مع جريتا جاردنر".

"بالنسبة للي يهمني هاروح باريس هادرس الموقف. أقتلها وارجع لسيلڤى".

"وبالنسبة لك؟" سألت ماكس.

"احتمال نكون أنقذنا نفسنا وظبطنا الحسابات شوية" قال وهو ينظر خارج النافذة. "لو كان وجودي مش ضرورى هاقف هنا".

أمسك روسيني ذراعه بتأثر. "ده الفصل الأخير. هانتصرف فيه كويس احنا الاتنين لوحدنا".

مثلت أنني أعترض "إيه إيه أنت ليه بتتعامل كأن من المسلم بيه إني هاجى معاك؟".

"عشان ماعندكش هنا حاجة تعملها".

السبت 16 مايو 2009

ناتالي دينيش، ألياس جريتا جاردنر، ألياس إيفانا بيسركا، كانت جميلة جدا. في صورة جواز السفر بدت كشقراء شاحبة، لكنها كانت على العكس من ذلك، هي امرأة كان صديقي عازف الساكسفون ماوريتسيو كاميرادي، العالم الوحيد الحقيقي بالنساء الجميلات، ليقوم بتعريفها بأنها "مزة"، فهي أنيقة، مثيرة، ذات جاذبية شديدة. وفقا لحساباتي ينبغي أن يكون عمرها أربعين عاما بالضبط. كان هذا السن ظاهرا عليها لكنه كان مختفيا أيضا بشكل ما. المؤكد أنه حتى الرجال الأصغر منها سنا بكثير كانوا ليرموا بأنفسهم تحت قدميها.

حين رأيناها للمرة الأولي ذهلنا. فغر بنيامينو فاه، عاجزا عن التفوه بأي كلمة. بدت شبيهة بسيلفي بشكل مقلق، وكان من الواضح أنه كان اختيارا مرغوبا فيه، حدث وتم الحفاظ عليه عبر جراحة التجميل.

استجمعت شجاعتي لأسأل بنيامينو "إيه اللي حصل فعلا؟".

أغمض عينيه كأن طعنة من الألم تصيب جسده. "قبل تسليمها لفاتيون بيتيشي كانت حبيبتي "ضيفة" على الخنزيرة دي عشان تتحضر. كانت بتستخدم معاها العنف. كانت بتهينها، وتجبرها عالرقص، وعلى أنها تلبس بدل سخيفة".

"سيلفى حكت لك؟".

هز روسيني رأسه. "معايا عمرها ما تكلمت عن اللي حصل".

"أمال عرفت منين؟".

"الكراسة. بورق مربعات زي بتاعة الأطفال وعلى الغلاف في سنجابين، لكن لما تفتحها تخش الجحيم. متهيألي دي كانت فكرة الدكتور النفسي بتاعها".

بعد بضعة أيام من المراقبة الحذرة، تأكدنا أنه حيثما تذهب جريتا، فهناك معها دائما سيدتان. واحدة تقود الليموزين السوداء ذات الزجاج الداكن، والأخرى بجوارها دائما كما لو كانت حارسا شخصيا لكنها كانت تتصرف أحيانا كسكرتيرة وأحيان أخرى كصديقة حميمة.

كانت السائقة هي الأصغر سنا. شعر قصير أشقر، دقيقة، تقود كما لو كانت ولدت وتربت على عجلة القيادة. وربما كان هذا ما حدث فعلا، أما الأخرى فكانت نموذجا للجمال السلافي، روسية ربما: وجنات عالية، شعر طويل، جسد منحوت في الجيم واحتمال كبير في باحة ثكنة عسكرية.

كان لها أسلوب في الحركة مطابق لأولئك الذين يمتهنون المهن العنيفة. عكس جريتا التي ترتدي دائما الكعب العالي، كانت كلتاهما ترتدي حذاء مفلطحا بنعل مطاطي.

في إحدي الليالي أصررت على أن يتصل بنيامينو بسيلفي أمامي "اسألها!".

"دي قسوة مالهاش داعي".

"لازم نعرف".

بعدها بدقائق انتزع المحمول. "جريتا جاردنر كانت لوحدها ولا كان في ستين تانيين معاها؟".

انفجرت سيلفي في طوفان من البكاء. قرب روسيني الهاتف من أذني حتى أسمع. كان مفجعا.

"مبسوط؟".

قضيت ليلة مؤرقة، لكن كان يجب أن أعرف إذا كانت هاتان المرأتان شريكتين في الأمر. كان هذا ما يفرضه الموقف. في اليومين التاليين لم يتبادل معي المهرب العجوز ولو كلمة، واستغللت أنا ذلك لأخرج مساء. وبينما كنت أمر في الشوارع وجدتني أمام مسرح. كانت هناك إعلانات ضخمة تعلن عن حفلة سيكشف فيها ماورو بالماس أسرار ريح الشمال. سيكون أمرا مفيدا أن أذهل نفسي بسلطان الرياح فاشتريت التذكرة. هذه نقود صرفت جيدا. جعلني عزف العود المغني* والماندولين أنسى لساعتين أنني

لست في باريس لأقضي إجازة.

كانت النساء الثلاث يعشن معا في شقة مرفهة بجوار كاتدرائية مادلين، لكن الكنيسة التي كانت جريتا تتردد عليها بانتظام كنيسة مكرسة لسانت سافا وتتبع الطائفة الأرثوذوكسية. كانت في الدائرة الثامنة عشر، رقم 23 شارع سيمبلون، حيث كانت ستتزوج في ذلك اليوم من مايو، أو الأصح أن نقول كان من المفترض أن تتزوج من شخص يدعى فول ليز، رجل من بلجراد يبلغ من العمر ثمانية وأربعين عاما. كان يكفي كتابة اسمه على محرك بحث حتى تكتشف أنه رجل عصابات قومي معروف.

لم ننجح في معرفة شيء سوى ذلك، فما اكتشفناه عن حياتها وأنشطتها كان قليلا للغاية. كان تتحرك كثيرا جدا وأحيانا تختفي ليومين أو ثلاثة. كان البقاء في إثرها أمرا معقدا وخطرا للغاية، فباريس مراقبة من رجال شرطة جادين وقساة، والتسكع أمام بوابة أو على ناصية شارع لفترة طويلة يعني بشكل مؤكد أنه سيتم رصدك، وسيكون هذا هو أغبي ما يمكن أن ترتكبه حين ترغب في قتل شخص ما.

أقمت أنا وبنيامينو في جحر بجوار جار دي ليون. واستنفدتنا نفسيا تلك الليالي الطويلة التي راقبنا فيها امرأة تبدو كمستنسخة من سيلفي.

كان قرار قتلها يوم زفافها هو اختيار بنيامينو. كنت معارضا لذلك. كنت أفضل فكرة قتلها تحت بيتها و لم يكن مهما حتى لو اضطررنا لقتل المرأتين الأخريين، فلن تكون هذه خسارة كبيرة للإنسانية، لكن روسيني أراد معاقبتها بشكل مثالي. أراد أن يتسلل خلف القسيس في منتصف

حفل الزفاف ثم يقتل فول ثم جريتا.

كانت هذه هي الخطة، وقد أعددناها بدراسة كل تفصيلة من تفاصيل الكنيسة. كانوا كثيرا ما يقيمون قداسات تعزف الأغاني الليتورجية البيزنطية والصربية والروسية، وكنا نحن نأخذ مكانا في الصفوف الأخيرة بآذان مشتتة وعيون منتبهة بشدة.

صبيحة الجمعة 15 مايو، سرقنا سيارة من الطرف الآخر من المدينة. سرقة سريعة، وتمت بإتقان. ركن السيد سيارته بالقرب من كشك الجرائد، الموتور يعمل والمفاتيح في مكانها، خرج فقط لمدة ثلاثين ثانية يحتاجها ليشتري الجريدة. وبينما كان يدفع ثمنها لمح بطرف عينيه شخصين يصعدان سيارته. تأخر جدا.

توجهنا للكنيسة وراجعنا طريق هروبنا. في اليوم التالي كان بنيامينو سيتصل بي ويقول لي: "هادخل دلوقتي".

كنت سأترك جراج شارع مونت سينيس ثم أنحرف يمينا من شارع سيمبلون. لألتقط بنيامينو وهو يهرب ثم أستدير يسارا من شارع دي بواسونيير، ثم يسارا عبر شارع أميرو وأخيرا يمينا لدخول بوليفارد أورنانو، الذي سأواصل فيه حتى محطة مترو بورت كلينياكورت، ثم نختفي في متاهة مترو أنفاق باريس اللامتناهية.

كان ذلك هو الجزء الذي تم بنجاح في الخطة. أما الباقي فقد دمره بنيامينو تماما.

انتظرته أمام الكنيسة. وصلت مبكرا بحوالي عشر ثوانٍ فسمعت صوتا واضحا لطلقة واحدة. خرج بنيامينو وهو يجري وبندقيته مشرعة. وبخلاف النظارات الداكنة كان يرتدي الأبيض من رأسه حتى أخمص قدميه. دخل وجلس على المقعد الخلفي بينما انطلقت والإطارات تصدر صريرا.

"إيه الخرا اللي حصل؟".

"أصبته هو بس" أجاب وهو يغير ملابسه. "كانوا يادوب هايتجوزوا".

"وجريتا؟".

"نزلت على ركبتها وغطت وشها بالطرحة".

"وانت؟".

"ماقدرتش اضرب عليها نار".

"ليه يا بنيامينو؟ إيه اللي يهمك من الخنزيرة دي؟".

غامت الرؤية أمامي من الغضب وكنت على وشك أن أحتك بتاكسي. "أنت عارف هايحصل إيه دلوقت؟ هايبدأوا يدوروا علينا تاني. رجعنا مطرح ماكنا نفس النقطة اللي كنا عندها سنة 2006".

"حسيت أني قصاد سيلفي" اعترف هامسا.

تخلينا عن السيارة ورمينا الملابس والأسلحة في صندوق قمامة ودخلنا في متاهة الأنفاق.

منحت برامج الأخبار والصحف اهتماما خاصا بالجريمة على المذبح. لكن لم تتحدث الأرملة ولا الضيوف المقربون لوسائل الإعلام وسريعا ما نصب السيرك الإعلامي خيمته، معتبرا الجريمة جزءا من تصفية الحسابات بين الفصائل الصربية: وقد ساعدت سوابق القتيل على تبني هذا الرأي.

اتصلت بماكس "بالرغم من أي حاجة لسة الشمس بتطلع".

"هنا كمان. جميلة وحر".

"أنت فين؟".

"في شيوسكو، مع بابي وجيورجيو ووالتر من كاليجاري".

"يبقى كان في عزومة جامدة النهاردة".

"آه. مارسيا طبخت".

"سامع دوشة جامدة. أنتوا كام؟".

"حوالي خمسين. ده الغدا السنوي لاتحاد الملاحدة والعقلانيين واللاأدريين".

لم أعتقد أنني سمعت أبدا باسم هذه المنظمة لكنني تجنبت الأسئلة. صمتت.

تنحنح السمين. "مش عارف أنا متغاظ أكتر ولا قلقان. الأكيد إني متضايق".

"بالنسبة للي الموضوع يستاهله ففي ظروف مخففة".

تنهد بصوت عال" في رأيي الموضوع أهم من كدة. هو خلاها أرملة مرتين ودلوقت الغضب والألم هايخلوها تبقى خطيرة بشكل مرعب. واحنا عارفين كويس هي ممكن تعمل إيه.. "

"وبالتالي؟".

"مكانش ينفع العجوز مايفكرش في ده لما كانت قدامه في الكنيسة".

بدلا من مغادرة باريس تابعنا مراقبة جريتا. راقبنا الجنازة من مكان آمن ولم أستطع أن أمنع نفسي من الإعجاب بأناقة قبعتها. كانت مطابقة للتي ارتدتها سيسا أرملة أركان في يوم جنازته.

بعدها بعدة أيام رأيناها تدخل مطعم في شارع لارين. لم تعد ترتدي ملابس الأرملة. بقت السائقة في السيارة، وجلست الأخرى بجانبها. كان المحل صغيرا والمائدة تطل على الواجهة الزجاجية الأمامية. جلس معهما رجل له مظهر متميز وسلوك الجندي المحترف.

شعرت برعشة تجرى عبر ظهرى. "بتأجره عشان يدمرنا".

رفع بنيامينو كتفيه "أراهن أن هو الراجل اللي خطف سيلفى".

كانت نبرة صوته التي نطق بها هذه الكلمات هي ما أطلقت أولي شكوكي. "بالمناسبة: هي سيلفى قالت إيه عن حقيقة انك سبت الست اللي خطفتها وحبستها في ماخور جنس جماعى؟".

"ما أهانتنيش زيما انت عملت... قالت انه ممكن مايكونش كل شيء مؤلم مؤذى وأنه ممكن نستفيد من الموقف عشان نفك شبكة المنظمة دي ونحرر الستات الضحايا".

لطمت فخذى بيدي" كان لازم أفهم على طول"

"إيه؟".

"سيلفى هي اللي قالت لك ماتقتلهاش".

"ممكن نقول أن ده كان موقفها".

"وانت ماقدرتش تقولها لأ رغم إنك عارف إن ده جنان. وانت عندك أمل أنك لو نفذتلها اللي بتقولك عليه يمكن تخف وترجع الست اللي أنت كنت عارفها زمان".

"وانت شايفني غلطان؟".

عشق رجل العصابات.

"لأ. أنا نفسي كنت هاعمل كدة لو مكانك، بس الست دي شيطانة متوحشة. هتطاردنا وتقطعنا حتت".

غرز أظافره في كتفي. "لأ. أحنا اللي هنطاردها ومش هانسيبها لحظة لحد ما ندمر منظمتها دي".

إذن كانت هذه هي الخطة. "كان ممكن تسألني إذا كنت عاوز انضم للحرب بتاعتك دي".

"ليه كنت هاترفض؟".

"ده جنان يا بنيامينو".

"ده ورم ولازم يتم استئصاله".

تنهدت. "ماحدش قال اننا الجراحين المناسبين".

"أنا باقول. والمرة دي مش هاندخل في النص العسكر والمافيا. هانعملها بطريقتنا".

"أحنا أدوات عجوزة لماضي مش هايرجع. هايكلونا".

"خلاص ارجع لوجانو عشان تقعد عالمعاش وسيبني أنا أنضف".

"لأ، كلام فاضي. ماليش عين أسيبك لوحدك، وإلا مين عارف إيه البلاوي اللي ممكن تورط نفسك فيها المرة دي".

رأيت بطرف عيني روسيني العجوز يبتسم بمكر. ابن العاهرة. كان ماكس على حق.

نهض الرجل وحيا جريتا جاردنر مسرعا بقبلة رسمية على يدها. خرج من المحل وابتعد على قدميه. منحناه خمسين خطوة ليسبقنا بهم وبدأنا نتعقبه.

كان محترفا وخلال وقت قصير كان ليرصدنا ويتعرف علينا. سيفكر أننا هواة وأننا نسهل عليه عمله. وربما كان ليبتسم ويفكر أن هذا يوم جميل.

ما كان ليخطر على باله أن هذا المهرب العجوز واللص المسلح الموجود بجوارى كان يريد فقط أن يوضح أنه لن يختبأ ثانية وأنه من أجل احترام وعد حب سيخاطر بحياته.بمباديء لا يعرف عنها أعداؤه شيئا. عشق رجل العصابات. وقد تبعته لأني لا أمتلك عشق بهذه القوة يربطني بشخص أو مكان. كما أن روسيني صديقى. أحد أصدقائي الاثنين المتبقيين. وهذا شيء له قيمته في عالم يخوزق فيه الجميع أحدهم الأخر.

تمت



ماسيمو كارلوتو
الأدب البوليسي: طريقا للرفض والحقيقة!

ماسيمو كارلوتو نفسه هو بطل لإحدى أكثر القضايا المثيرة للجدل في التاريخ القضائي الإيطالي، ففي يناير 1976 تعثر كارلوتو الذي كان وقتها عضوا في حركة سياسية يسارية في جثة تم طعنها بوحشية. اتهمته الشرطة بالقتل، ونصحه محاميه بالهرب، وقبل الاستئناف بفترة قصيرة، إلا أنه تم القبض عليه وتعذيبه عن طريق الخيانة، وأرسل إلى إيطاليا، وفي إيطاليا سجن بعد العديد من المحاكمات والأخطاء والتعديلات القانونية حتى عفي عنه عام 1993. كان كتابه الأول "سيرة ذاتية" لكنه قام بعدها بكتابة سلسلة من الأعمال البوليسية بطلها "التمساح" الذى كان سجينا سابقا ثم عمل مخبرا واتسمت شخصيته كشخصية كارلوتو بتوقها للحقيقة والعدالة.

مقالة الأوبزرفر:

لا يمكنك تأليف هذا: تلميذ بالمدرسة الابتدائية يهتم بشؤون السياسة مبكرا هكذا وينضم للكشافة المحلية ويتجه لأقصى اليسار، في بادوا شمال شرق إيطاليا في أواخر الستينيات كان صبية الكشافة مرتعا خصباً للأفكار المتطرفة.

في سن الثالثة عشر يصبح عضوا نشطا في لوتا كونتينوا، جماعة يسارية، ويصبح مراسلا لجريدتها الأسبوعية. في التاسعة عشر، أثناء سنوات زعامة إيطاليا حين بلغت التوترات السياسية أوجها، شهد جريمة قتل بشعة، حيث طُعنت مارجريتا ماجيللو الطالبة ذات الخمس والعشرين ربيعا 59 طعنة، فجرى مراهقنا ليستنجد بالشرطة وهو مغطىً بدمها في محاولته لإنقاذها، ليلقوا القبض عليه ويتهموه بالقتل. بعد ذلك بثلاثة أعوام، بعد إطلاق سراحه وإعادة محاكمته وإدانته، حكم عليه بثمانية عشر عاماً فهرب إلى فرنسا ثم مكسيكو سيتي.

لمدة 6 أعوام آواه وأطعمه وعلمه النشطاء السياسيون، إلى أن سلم نفسه لإيطاليا، ومع ذلك تم ضربه وتعذيبه، وأمضى السبع سنوات التالية في السجن تحت الحراسة المشددة في ميلانو وتورينو وبادوا مع أعتى مجرمي البلاد.

أصبحت معركة كارلوتو مع المحاكم أحد أشهر القضايا فى تاريخ القانون الإيطالى: ثمانون قاضيا وخبيرا شاركوا فيها، وتمت محاكمته وإعادة محاكمته إحدى عشر مرة، واستمرت القضية لمدة ثمانية عشر عاما،

وبلغ وزن أوراقها 96 كيلوجراما. أخيرا، وبعد حملة دولية، صرح خبير فى سكوتلانديارد بأن إجراءات الطب الشرعي التي استخدمت في القضية فاقدة للصلاحية منذ 20 عاما، وعفا عنه الرئيس الإيطالي.

توجه كارلوتو للكتابة عندما حصل على حريته، وبعد كتابته لسيرته الذاتية وبعض المقالات الصحفية والمسرحيات، اتجه لكتابة الروايات البوليسية، واخترع شخصية مبنية على شخصيته الحقيقية، وهي عبارة عن شخصية محقق يسمى "التمساح" يمارس المهنة بدون رخصة، يشرب خمر "الكالفادوس" بإفراط ويقود سيارة ماركة سكودا.

تم إنتاج اثنين من كتبه كأفلام، وكتابه الثالث "الهول المظلم للموت" قام بإخراجه أوريليو دي لاورنتيس. لدى كارلوتو جمهور ضخم في إيطاليا وفرنسا، وعلى وشك اقتحام السوق البريطاني. يعيش كارلوتو حاليا فى كوارتو سانت إيلينا على أطراف كالياري في سردينيا بصحبة زوجته كولومبا وابنه الصغير. يقول كارلوتو ضاحكا: "سأحرص على أن ألحقه بالكشافة".

لا يمكن اختلاق هذه القصص، ولن تكون هناك الحاجة لذلك ببساطة، لأن هذه هى قصة حياة ماسيمو كارلوتو.

التقينا في جاستروباب شرق لندن. كنت أتوقع لقاء شخص مثقل بماضيه المؤلم، لكن كارلوتو أثبت أنه متحدث بارع ذو ميل للسخرية من نفسه، قويّ البنيان، مشعر (لديه العديد من المعجبات الإيطاليات)، يرتدي ملابس داكنة بسيطة، ولديه هيئة لاعب الركبي وهو البالغ من

العمر 48 عاما، وربما زاد فقط عدة كيلوجرامات عن وزنه في تاريخ سابقته القانونية.

ويمكننا أن نستنتج من خلال الوصف التفصيلي لما يتناوله التمساح وأصدقاؤه -والذي يحتوي على المشويات والباباردييللي بكبد الدجاج والنبيذ من محصول السنة الملائمة والباكلاه وريزوتو القرع العسلي- أن كارلوتو افتقد الطعام الجيد وهو رهن الاعتقال.

"على الاطلاق" يقول كارلوتو وهو يشعل أول سيجار أسود من سلسلة السجائر التي سيشعلها لاحقا. "لقد كنت هناك مع الأشخاص المناسبين: أعضاء المافيا الذين يمكنهم شراء مزايا معينة بسبب صلاتهم المتشعبة. كان يمكنهم الحصول على مواد غذائية مناسبة، فكانوا يقضون وقتا طويلا في تحضير قائمة الطعام وطهيه. للاختصار يمكنك القول إنني تناولت وجبات صقلية وكالابرية ممتازة".

أجاد كارلوتو قضاء وقته في السجن، حيث قام بدور المفاوض بين الأطراف المتنازعة، وحصل على صداقات قيمة في عالم الجريمة المنظمة كـ "كاتب" يقوم بكتابة الخطابات والوثائق لزملائه من المساجين، ويستخدم الآن علاقته بهؤلاء المنتمين للعالم الإجرامي للحصول على بعض المعلومات الجوهرية جدا عن عالم الجريمة، ليضيف لمسة أكثر من واقعية على كتبه.

يعتبر كارلوتو من زعماء مجموعة "الأدب البوليسي لحوض المتوسط"، ويشكو من النقص في صحافة تقصّي الحقائق الإجرامية في إيطاليا وبدرجة أقل في الصحافة الفرنسية والإسبانية، ويقول إن رواياته كلها مبنية على

قصص مجرمين حقيقيين وجرائم قتل حقيقية، أي على قصص حية واقعة، وتدل أوصاف كارلوتو المفصّلة للميتات العجائبية البشعة -من اطلاق النار مرورا بالذبح وصولا لحوادث السيارات المرتبة والخوزقة على رمح والاغتصاب بالقبضات حتى الموت- على الصحبة التي يحتفظ بها كارلوتو أو احتفظ بها من أصدقائه بالداخل.

"لم أقم ولو لمرة باختراع جريمة قتل" يقول كارلوتو، فـ "كل جريمة قتل في كل ما أكتبه ترتبط بجريمة قتل حقيقية، جريمة قمت بالفعل بقراءة تقرير التشريح الخاص بها ورأيت وثائقها. هذه هي طريقتي في توثيق ما يحدث في إيطاليا حالياً".

"يتحدث كتاب الأدب البوليسي عن الوضع السياسي والاجتماعي الراهن، ويتفاعلون بمنتهى السرعة مع التغيرات في عالم الجريمة، حتى أن الأدب البوليسي لحوض المتوسط يسمى في إيطاليا بالأدب الواقعي، ولدرجة أن هناك صحفيين يتصلون بي وقت كتابتهم عن جريمة ما ليسألوني عن رأيي فيما يجري، فلا يوجد أي تحقيقات الآن. لقد فقدت إيطاليا أي حس بالحقيقة، لأن لا أحد الآن أصبح يقتنع "بالحقائق"الرسمية".

"وأصبح من النادر الآن قيام كتاب الجرائم في إيطاليا باختراع قصص، فمعظم القصص حقيقية، ولهذا أصبحت هذه الكتب ذات شعبية عالية".

يعتقد كارلوتو بوجود حوالي دستة من كتّاب الجريمة في حركة حوض المتوسط للأدب البوليسي. مات منهم اثنان في السنوات الأربع الماضية،

لكن أعمالهم نُشرت بالانجليزية، وهما جان كلود إيزو، فرنسي- إيطالي يعتبره كارلوتو أفضلهم جميعا، والكتالوني مانويل فازكويز مونتالبان. إذا باع كارلوتو رواياته المترجمة بشكل جيد سيؤدي هذا إلى ترجمة أعمال المزيد من كتاب الأدب البوليسي. الأكثر شعبية هو أندريا كاميليري الصقلي، الذى تبيع كتبه من 200000 إلى 300000 في إيطاليا، ويليه كارلوتو بفارق بسيط.

كتاب الجريمة الذين تم سجنهم ليسوا بعدد قليل في أمريكا اللاتينية، التي يمتلك كارلوتو عائلة وأصدقاء عديدين فيها. أشهر الأسماء في أدب الجريمة باللغة الإنجليزية هو إدوارد بانكر، الأمريكي الذي قضى سنوات تصل للثلاثين في سجون متنوعة عقابا على سلسلة من الجرائم التى قام بها. لم يقابل كارلوتو بانكر لكنه قرأ كل أعماله، وهو من المعجبين به.

سيتضح فى العام الحالي ما إذا كان "أدب الجرائم الواقعية" في حوض المتوسط سيثبت شعبيته في العالم الناطق بالإنجليزية أم لا، مع إصدار كارلوتو لكتاب آخر، وبما أن هيننج مانكل فاز بالخنجر الذهبي، وهي الجائزة الأهم في أدب الجريمة المنشور بالإنجليزية، فقد شهد عام 2001 انطلاقة أوربية، ويعتقد ماكسيم ياكوبسكي -المؤلف والناقد ومالك "ميردر وان" وهي إحدى متاجر الكتب المتخصصة في لندن- أن مبيعات الكتب المترجمة زادت خمس أضعاف في السنوات الأخيرة الماضية، حيث يمكن للاختلافات الثقافية -وليست اللغة بأقلها- كالإحساس بالمكان ونقاط القوة والضعف في تشكيلة من هيئات التحقيق وعمق

الشخصيات في العديد من الأعمال؛ أن تجعل من أدب الرواية الأوروبي أكثر جاذبية من الكتب الأمريكية الشائعة على سبيل المثال.

نشرت رواية كارلوتو "البغل الكولومبي" التي صدرت في 2001 والتي تدور حول تجارة المخدرات وانتقام البوليس في المملكة المتحدة العام الماضي، أما الرواية الثانية "سيد العقد" فتدور على خلفية القمع البوليسي الذى حدث أثناء المظاهرات المضادة للرأسمالية في قمة الثمانية بجنوة عام 2001 وتستكشف أكثر الأعماق ظلمة للسادية والمازوكية، اختفاء الآباء، أفلام القتل الواقعية والدعارة.. بنيت الرواية على قصة حقيقية أُرسلت لكارلوتو على بريده الإلكتروني برسالة تبدأ بعبارة "عزيزي التمساح".

يتقبل كارلوتو أن شخصياته الأساسية ليست من النوع المحبوب. هل الواقع في إيطاليا المعاصرة متجهم لهذا الحد تحت السطح؟ "نعم، لكن عليك أن تضع في اعتبارك أن الأمور تغيرت، فبالتزامن مع التغيرات في الاقتصاد العالمي، حدثت ثورة في عالم الجريمة كذلك". وفقا لتقرير للأمم المتحدة صدر منذ خمس سنوات: الدخل السنوي من الجريمة المنظمة على مستوى العالم يبلغ آلاف البلايين من الدولارات، والمشكلة الكبرى للمجرمين هي غسيل الأموال.

"المنطقة المفضلة لإعادة تدوير هذه الأموال هي حوض البحر المتوسط، بسبب العلاقة الأصيلة بين عصابات المافيا المختلفة والبنوك والصناعات والسياسة هناك، ففي الجزء الأكثر ثراء من إيطاليا، هناك تداخل وثيق بين الاقتصاد الشرعي وغير الشرعي، فالمستويات العليا جدا من قيادات عالم

الجريمة أدركت أن عليها أن تخترق العملية الصناعية الشرعية، وأن عليهم أن يعملوا مع غيرهم، وبالتالي اختلفت منظمات المافيا العديدة منتجة شرائح مختلفة وطبقات ثقافية مختلفة.

"فبينما انكمشت المافيا الصقلية جنوبا، انخرط النيجيريون بشدة في تجارة المخدرات، ويدير الرومانيون شؤون الدعارة، ويمتلك الصينيون مواخير خاصة بهم، وعلى مستوى أدنى ستجد الألبان. هناك وضع مختلف تماما فيما يخص الجريمة المنظمة".

"وهناك قواعد جديدة أيضا، فميثاق شرف المافيا من الطراز القديم مثل: لا تستقر بمكان، لا تسرق فتاة صديق.. إلخ، لم يعد سارياً" يقول كارلوتو. ينبغي له أن يكون على علم بهذا، لأن أفضل مصدر معلومات لديه هو رجل مافيا من الطراز القديم، ومن مصادره الأخرى محامون وقراء أغلبهم كما يقول من النساء، وفي مرات نادرة ضباط شرطة.

هناك ثلاث شخصيات رئيسية في سلسلة التمساح. "المخ" محترف حاسبات ومعلومات مفرط في الشراب، ويطهو وجبات ممتازة، ونادرا ما يخرج، ولديه آراء يسارية متطرفة، أما العضلات فهو روسيني، والمبني على شخصية مصدر المعلومات الإجرامية الرئيسي لدى كارلوتو وعلى حياته الحقيقية، وهو لا يتورع عن ارتكاب عملية قتل بدم بارد، ثم هناك التمساح نفسه: مالك ملهى ليلي، من هواة موسيقى البلوز والجاز وباحث دائم عن الحقيقة.

"أقوم بتأليف القصة من خلال قضايا قانونية حقيقية، وأخطاء قانونية"

يقول كارلوتو وهو يرتشف الأسبرسو. "التمساح هو نوع من الخاسرين يستخدم مهاراته في خدمة خاسرين آخَرين".

وماذا عن الطريقة التقليدية، حيث يقوم "الأشخاص الطيبون" بتصفية خصومهم؟. "لستُ مهتما بفوز الطيبين وخسارة الأشرار" يقول. "هناك براء وبراءة.. أنا مهتم بالواقع وهذا واقعي".

حتى في اختياره للسيارة، فمن النادر رؤية شخص صعب المراس خلف عجلة قيادة سيارة سكودا، لكن التمساح يقود واحدة وكذلك كارلوتو.. "لكن زوجتي لن تسمح لي الآن، لذا فسيارتي هي ستروين "لأن السكودا هي السيارة الأقل من حيث إيقاف رجال الشرطة لها في الشوارع الإيطالية".

زوجته محاسبة في مكتب ضرائب محلي، وهو على وشك افتتاح محل كتب في كوارتو، حيث لا يوجد بها واحد، وسيقوم بعمل ورش كتابة به. يبدو أن نقطة ضعفه الوحيدة هي عشقه لنبيذ الكالفادوس. "الجميع يعلم عن الويسكي والجرابا. لا أحد يعلم عن الكالفادوس"، ويحتسي مشروبا يسمى بالتمساح تيمنا بشخصيته الروائية. قام بعمل هذا الكوكتيل بارمان في كالياري، وهو مكون من ثلاث مقادير من درامبوي وسبعة كالفادوس تقدم مع الكثير من الثلج المجروش وشريحة تفاح أخضر، "لتعزيك عندما يفرغ كأسك". "لا يمكن لأحد أن يتناول أكثر من أربعة و لم يقم أحد بذلك". انتشرت سمعة هذا الكوكتيل، ويمكنك الآن أن تحصل على "التمساح" في روما وميلانو ونابولي.

أخذ الحوار منحى جادا. هل فقد كارلوتو نهائيا الأمل خلال هذه الأعوام المفقودة التي انقضى أغلبها في الحراسة المشددة؟ يقول مفكرا: "سأصبح رجلا عجوزا قبل أن أخرج، فهل سأظل هنا حياتي كلها؟".

"24 ساعة في اليوم".

من الذي يعتبره المسؤول عن خسارة الكثير من الحياة هكذا؟ رجل شرطة فاسد، خصم سياسي، قاض؟ يرد "النظام". النظام القانوني الذي ساهم هو ومؤيدوه في تغييره، لكن ما زالت به أخطاؤه. في الثمانينيات تم الحكم غيابيا على كاتب إيطالي آخر هو سيزار باتيستي بالسجن مدى الحياة بتهمة الإرهاب بقوانين استثنائية. دائما ما نادى باتيستي ببراءته، إلا أنه أصبح الآن هاربا، لأن الحكومة الفرنسية وافقت على طلب ترحيلٍ من الحكومة الإيطالية. كارلوتو هو أحد المنادين بحرية باتيستي.

تعرض العديدون من جيل كارلوتو للاعتقال، ودائما بسبب نشاطهم السياسي. كان من الممكن إطلاق سراح كارلوتو فورا لو تم عمل تحقيق طب شرعي جيد في عام 1976، لكنه ما زال ينتظر، فشعرة مأخوذة من بين أظافر الضحية كان من الممكن أن تعطي عينة د.ن.ا "اختفت" بشكل غامض من خزانة بمكتب الطبيب الشرعي. هذه قضية لا يستطيع التمساح نفسه القيام بحلها.

http://www.guardian.co.uk/books/2005/jan/30/crimebooks.features

شكر خاص

يتقدم المؤلف بالشكر لإدواردو "وجه السمكة فاسيو، إرنستو ميلانيزى، لوكا باربييرى، إيلينا باتيستا وهامان زد".

حب قاطعي الطريق

"لست مهتمًا بفوز الطيبين وخسارة الأشرار، أنا مهتم بالواقع، وهذا واقعي، لم أقم ولو لمرة باختراع جريمة قتل، فكل جريمة قتل في كل ما أكتبه ترتبط بجريمة قتل حقيقية، جريمة قمت بالفعل بقراءة تقرير التشريح الخاص بها ورأيت وثائقها، هذه هي طريقتي في توثيق ما يحدث في إيطاليا، أقوم بتأليف القصة من خلال قضايا قانونية حقيقية، وأخطاء قانونية" كارلوتو.

يعتبر ماسيمو كارلوتو من زعماء مجموعة "الأدب البوليسي لحوض المتوسط" ورواياته كلها مبنية على قصص مجرمين حقيقيين، ويتقبل المؤلف فكرة أن شخصياته الأساسية ليست من النوع المحبوب في المجتمع، وتدل أوصافه المفصّلة للميتات العجائبية البشعة - من إطلاق النار مرورًا بالذبح وصولا لحوادث السياراتّ المرتبة والخوزقة على رمح والاغتصاب بالقبضات حتى الموت - على الصحبة التي يحتفظ بها من أصدقائه بداخله.

الغلاف: بسمة صلاح






9 789774 902215